

العنوان:	ابن حزم أديبا وناقدا
المؤلف الرئيسي:	شياب، فضل الله محمد
مؤلفين آخرين:	عباس، بشير(مشرف)
التاريخ الميلادي:	1999
موقع:	الخرطوم
الصفحات:	1 - 253
رقم MD:	915197
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة النيلين
الكلية:	كلية الآداب
الدولة:	السودان
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	إبن حزم الاندلسي، علي بن احمد بن سعيد، ت. 456 هـ، التراجم، الشعراء الاندلسيون، النقاد العرب، الدواوين والقصائد
رابط:	<a href="http://search.mandumah.com/Record/915197">http://search.mandumah.com/Record/915197</a>

للاستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب أسلوب الاستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

شياب، فضل الله محمد، و عباس، بشير. (1999). ابن حزم أديبا وناقدا (رسالة دكتوراه غير منشورة). جامعة النيلين، الخرطوم. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/915197>

إسلوب MLA

شياب، فضل الله محمد، و بشير عباس. "ابن حزم أديبا وناقدا" رسالة دكتوراه. جامعة النيلين، الخرطوم، 1999. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/915197>

## الباب الثاني

ابن حزم ناثرًا

تمهيد

### لمحة عن الأساليب النثرية في القرن الخامس الهجري في الأندلس.

يقول ابن بسام في مقدمة كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة الذي عني فيه بدراسة أدباء الأندلس في القرن الخامس الهجري " إن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نطق بتلك الأفاق غراب ، أوطن بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنماً ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً .....<sup>(١)</sup>.

ومن هنا فإذا القينا نظرة سريعة على الكتابات النثرية التي ظهرت خلال القرن الخامس عشر الهجري في الأندلس ، ألفينا كثيراً من أساليبها يميل إلى محاكات الأساليب المشرقية ، ويقتفي أثرها.

وعلى الرغم من أن كتاب الأندلس كانوا على طريقة المشاركة في كثير من موضوعات رسائلهم ، وفي الافتتان اللفظي وخاصة السجع فإنه " لا ينكر استقلال الكتاب الأندلسيين في الجزئيات ومحاولتهم التجديد في اختيار الموضوعات ؛ فإذا قرأنا ابن برد الأصغر وابن زيدون لمسنا أثر سهل بن هارون والجاحظ بوضوح ، ولكن هذا لا يعني أن الكاتبين لم يخرجوا من إصار دائرة التقليد"<sup>(٢)</sup>.

ومهما اختلفت الآراء في تقويم أصالة الكتابة النثرية في الأندلس فإن تبعيتها لقريبتها في المشرق نتيجة حتمية ساعدت عليها ظروف تاريخية وثقافية معينة.

وهكذا فإن مرحلة المحاكاة في الأدب الأندلسي أمر طبيعي كما أنها مرحلة انتقالية يمر بها الأدباء في كل بيئة جديدة . ثم لا يلبثون أن تنهياً لهم مكونات شخصية ، فيختطوا لأنفسهم أسلوباً مستقلاً مبتكرين فيه من الخصائص ما ينم عن شخصيتهم وبيئتهم وعصرهم ، يقول ابن شهيد : " وكما ان لكل مقام مقالاً فكذلك لكل عصر بيان ، ولكل دهر كلام ، ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من

(١) الذخيرة ، ابن بسام م ١/ق ١ ص ١٢.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين احسان عباس، دار الثقافة ، بيروت (ط ٢) ١٩٧٤

الخطابات ، وضرب من البلاغة ، لا يوافقها غيره ، ولا تهش لسواه . وكما أن  
للدنيا دولا ، ف كذلك للكلام نُقْلٌ وتعابير في العادة . ألا ترى أن الزمان لما دار  
كيف أحال بعض الرسم الأول في هذا الفن إلى طريقة عبد الحميد وابن المقفع  
وسهل بن هارون وغيرهم من أهل البيان ؟ ، فالصنعة معهم أفسح باعاً واشد ذراعاً  
، وأتور شعاعاً لرجحان تلك العقول واتساع تلك القرائح في العلوم ثم دار الزمان  
دوراناً ، فكانت إحالة أخرى إلى طريقة أبراهيم <sup>(١)</sup> بن العباس ومحمد بن الزيات  
<sup>(٢)</sup> وابني وهب ونظرانهم ؛ فرقت الطباع ، وخفّ نقل النفوس ثم دار الزمان  
فاعترى أهله باللطائف صلفٌ وبرقة الكلام كلف فكانت إحالة أخرى إلى طريقة  
البديع وشمس المعالي وأصحابها" <sup>(٣)</sup> .

وأنطلاقاً من نظرة ابن شهيد هذه ، نجد بعض الكتاب الأندلسيين خلال هذه  
الفترة يتجنبون في كتاباتهم تقليد المشاركة بالمعني الذي قال به ابن بسام . ويعتد  
ابن حيان أحد هؤلاء الكتاب الذين أوجدوا لأنفسهم أسلوباً خاصاً في الكتابة وفي  
هذا يقول الدكتور إحسان عباس : " ولعل ابن حيان هو الكاتب الوحيد الذي اشتق  
لنفسه أسلوباً أدبياً رفيعاً لم يعتمد فيه تقليد الكتاب الآخرين وهو فوق سهولة  
الاسلوب التاريخي ودون الأسلوب السجوع ، وإثارة للرونق اللفظي. <sup>(٤)</sup>

وإذا كان ابن حيان قد بقي في كتاباته التاريخية دون الأسلوب المسجوع  
إثارة للرونق اللفظي، فابن حزم قد أعرض عن ذلك كله - إلا ما جاء عفو  
الخاطر - وبقي عند النمط العادي من الأساليب الكتابية ، أعني الأسلوب المرسل  
الذي لا يأخذ بشيء من الزخرف والزينة ، ويرسل الكلام إرسالاً بحيث يضمن

<sup>(١)</sup> هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول ، مولى يزيد بن المهلب، ويكنى أبو إسحاق. ولد سنة ١٧٦هـ  
وكان شاعراً و كاتباً بليغاً . توفي سنة ٢٤٣هـ بسرّ من رأى . ينظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان  
ج ١/ص ٤٤ وما بعدها ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ج ١/ص ١٦٤ وما بعدها.

<sup>(٢)</sup> هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن أبي حمزة ، أبو جعفر المعروف بابن الزيات ، عمل بالوزارة ، وكان  
أديباً فاضلاً عالماً بالنحو واللغة ، ولد سنة ١٧٣هـ ، وتوفي سنة ٢٣٣هـ ينظر ترجمة في تاريخ الطبري -  
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بمصر ( بدون ط ) سنة ١٩٦٨م - ج ٩/ص ١٥٦ ، وما  
بعدها وتاريخ بغداد ج ٢/ص ٣٤٢ وما بعدها.

<sup>(٣)</sup> الذخيرة ، ابن بسام م ١/ق ١ ص ٢٣٧.

<sup>(٤)</sup> تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين، احسان عباس ص ٢٨١-٢٨٢.

وصول فكرته ويعبر عن حرارة موقفه . ولهذا فإنه لم يكن يحفل في كتبه ورسائله  
بأي تحسين أسلوبى أو بلاغى كما سنرى ذلك خلال دراستنا لبعض رسائله وكتبه .

## القسم الأول

### رسائل ابن حزم

هى رسائل قصد فيها ابن حزم إلى معالجة قضايا أدبية وفكرية وفلسفية ودينية واجتماعية .... وبتعبير آخر : إنها مجموعة من الفصل ، عالج في كل وحدة منها موضوعا مستقلاً ، وتناول في هذه الموضوعات جميع ألوان المعرفة . فمن هذه الموضوعات ما يبحث في الفقه والأدب والأخلاق والفلسفة ، ومنها ما يبحث في أخلاق النفس والأصول والأمانة والسياسة والمنطق والفرق الإسلامية والاجتماع والتاريخ إلي غير ذلك ، لكن هذه الرسائل ورغم تنوعها في شعاب المعرفة الإنسانية ، إلا أننا نجدها تعالج موضوعات أساسيه تهدف الى تقديم المعرفة ، وخدمة المجتمع الإنساني.

ويدلنا هذا النتاج الفكري بتنوعه وتعدد ، على أن كاتبنا كان غني العطاء ، وأنه لم يكن منشأ في فن واحد فحسب ، بل كان ذا ذوق وبصيرة نافذة ، ورغبة ملحة في الكشف عن جوانب حياة الإنسان الأندلسي ، الاجتماعية والنفسية والدينية بصورة خاصة ، والعمل على سبر أغوار النفس البشرية بصورة عامة .

ويبدو أن ابن حزم لم يكن من أولئك الأدباء الذين كانوا يتسابقون في التقرب بنثرهم إلى الأمراء والملوك رغبة في العطايا الهائلة ، والهبات الطائلة حيث انه لم يكن ليستجدي العطف فكيف يستجدي العطاء ؟ وربما لهذا السبب أيضاً خلت فنونه النثرية من الخطابة والوصايا والتوقيعات والعهود وغيرها ، في حين حفلت بالكتابات التأليفية ذات القيمة الكبيرة من حيث ما عالجت من موضوعات .

وهكذا فقد استطاع ابن حزم بما له من بعد نظر ، وقوة ذكاء أن يجول برسائله في كل مجال وأن يعالج من الموضوعات كل قريب وبعيد ، ولما كانت رسائل صاحبنا قد تنوعت بتنوع أغراضها ومراميها ، فسوف نعرض فيما يلي لبعض أنواعها دراسة وتحليلاً حتى تتضح لنا أساليبه فيها ومقدار القيمة العلمية التي يمكن أن تجنيها منها.

## الفصل الأول

### طوق الحمامة

يعد هذا المؤلف تحفة من التحف الأدبية التي عالجت فن الحب بعمق و تفهم كبيرين وان كان الموضوع الذي طرقة ابن حزم فيه قديماً في الأدب العربي إذ سبقه إليه كل من الجاحظ في رسالته " العشق والنساء " وتعرض له إخوان الصفا في رسائلهم ، وحلق فيه أبو بكر بن داود في كتابه الزهرة ولكن على الرغم من ذلك كله يبقى الطوق نتاجاً فكرياً فريداً من نوعه لالتزام صاحبه فيه منهجاً علمياً مستقلاً لا يأخذ برأي قائل ، ولا ينقاد إلا لعقله ، وفي هذا الصدد يقول ابن حزم في مقدمة الكتاب " والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدك ، والاقتصاد على ما رأيت ، أوصحّ عندي بنقل الثقافات ، ودعني من أخبار العرب والمتقدمين ، فسيلهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ، ولا أتطلى بحلي مستعار ، والله المستغفر والمستعان ، ولا رب غيره " (١).

ولعل هذا ما دفع أحد المستشرقين الى القول : " وأحسن تواليفه في هذه الناحية كتابه عن الحب المسمى " طوق الحمامة " ومقامه في الأندلس مقام كتاب الحياة الجديدة (VITA NOVA) لدانتي في إيطاليا ، وهو طاقة زهور أريجة من الأفايص ومقطعات الشعر والتحليل النفسي الخلقي للحب " (٢).

ومن هنا نستطيع أن نقول إن هذه الرسالة تعدّ من أقوى الأدلة على نزعتة الحرة في العلم والفكر التي طالما نادى بها انطلاقاً من مذهبه الظاهري الذي يعزف عن التقليد ويدعو إلى التحرر منه .

#### ١ - دواعي تأليف الطوق وتاريخه :

كتب ابن حزم رسالة طوق الحمامة بمدينة شاطبة ، ويبدو أن ذلك كان أيام لجوئه بها نجاة بنفسه من الاضطهاد السياسي الذي تعرض له . إلا أننا لم نعثـر

(١) الرسائل، ج ١، ص ٨٧.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ٣٩.



على نصّ تاريخي يعين لنا بالضبط السنة التي ألّفت فيها . وأغلب الظن أنه كتبها في الفترة التي تقع بين ربيع الثاني سنة ٤١٧هـ و ربيع الثاني من السنة التي تليها أي ٤١٨هـ ومما يؤيد ذلك قول ابن حزم في حكم بن منذر <sup>(١)</sup> المتوفي سنة ٤٢٠هـ " وحكم المذكور في الحياة ، في حين كتابتي اليك بهذه الرسالة قد كفّ بصره وأسّنّ جداً" <sup>(٢)</sup>.

أما عن دواعي تأليفها ، فيذكر ابن حزم أنها كانت استجابة لرغبة صديق عزيز عنده إلا أنه لم يذكر لنا اسمه ، وفي ذلك يقول : " فإن كتابك وردني من مدينته المريّة إلى مسكني بحضرة شاطبة ، تذكر من حسن حالك ما يسرني وحمدت الله عز وجل عليه واستدتمته لك ، واستزدته فيك ..... وكلفتني - أعزك الله - أن أصنف لك رسالة في صفة الحبّ ومعانيه ، وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، ولا متزايدا ولا مفنأ ، ولكن موردا لما يحضرني على وجهه ، وحسب وقوعه حيث انتهى حظي وسعة باعي فيما أذكره ، فبدرت إلى مرغوبك . ولولا الإيجاب لك لما تكلفته فهذا من اللغو ، والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألا نصرفها إلا فيما نرجو به رَحْبَ المنقلب وحسن المآب غداً <sup>(٣)</sup>.

يرى الدكتور طه الحاجري فيما قدم به ابن حزم رسالته أنه لم يكن سوى أسلوب من تلك الأساليب التقليدية التي كانت معروفة في تقديم الكتب آنذاك غير أنه سرعان ما يستدرك ما ذهب إليه ويقول : " فسواء صح أن كتاب طوق الحمامة صدر عن استجابة ابن حزم لرغبة هذا الصديق أم لم يصح ، فالذي لا ريب فيه عندنا أنه لا بدّ من الحافز النفسي ، ولا بد لهذا الحافز النفسي من الملابس التي تملك أن تثيره وتبعثه من مكنه . فإذا صح أن صديقه هذا اقترح عليه وليس ما يمنع منه ، فقد صادف - إذن اقتراحه هوى في نفسه " <sup>(٤)</sup> .

<sup>(١)</sup> هو حكم بن منذر بن سعيد بن عبدالله بن عبد الرحمن بن قاسم بن عبدالله بن نجيح من أهل قرطبة - توفى

بمدينة سالم بحو سنة ٤٢٠هـ ينظر ترجمة في الصلة ج ١/ص ١٤٨-١٤٩.

<sup>(٢)</sup> الرسائل ج ١ ص ٣٩.

<sup>(٣)</sup> الرسائل ج ١، ص ٨٤-٨٦.

<sup>(٤)</sup> ابن حزم صورة اندلسية - طه الحاجري، دار الفكر العربي ، مصر ص ١٥٦.

إنَّ رغبة الصديق - صديق ابن حزم - لم تكن إلا شرارة أشعلت ما بداخل ابن حزم ، فقد كان تأليف الكتاب مناسبة ليعرض شيئاً من أحواله ، وأحوال مدينته ( قرطبة ) التي كان يحبها وهو بعيد عنها وكان مناسبة ليعرض تجربته الذاتية في الحبّ والحياة ، على صورة لقطات سريعة ، وليكون صدق لقصة الحب وأحوال المحبين في الأندلس في زمانه .

أيّاً كان من أمر في قضية تأليف رسالة طوق الحمامة ، فإنها تعد تجربة خصبة وفريدة من نوعها في ميدان الألفة والألف بغض النظر عن الأسباب والدوافع وذلك ماجعلها تحفة أدبية نادرة المثال.

## ٢ - منهجية ابن حزم في الطوق:

إن نظرة عجلى إلى كتاب طوق الحمامة تظهر لنا أن ابن حزم لم يرخ لقلمه العنان يكتب ما يشاء وكيف شاء في هذا المؤلف وإنما اعتمد فيه المنطق وحكم فيه العقل إلى حد كبير ، ويبدو ذلك واضحاً في قوله : " وقسمت رسالتي هذه على ثلاثين باباً منها في أصول الحبّ عشرة (.....) ومنها في أعراض الحبّ وصفاته المحمودّة والمذمومة اثنا عشر باباً..... ومنها في الآفات الداخلة على الحبّ ستة أبواب ..... ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة (١) .

والغريب في الأمر أن ابن حزم لم يلتزم بهذا التقسيم في أبواب رسالته الذي لجأ إليه في بادئ الأمر ، وراح يخالف ترتيب بعضها ، وفي ذلك يقول : " لكننا خالفنا في نسق بعض هذه الأبواب هذه الرتبة المقسمة في درج هذا الباب الذي هو أول أبواب الرسالة ، فجعلناها على بادئها إلى منتهاها واستحقاقها في التقدم والدرجات والوجود ، ومن أول مراتبها إلى آخرها وجعلنا الضدّ إلى جنب ضده ، فاختلف المساق في أبواب يسيره " (٢) .

ولا يظهر هذا التغير الذي طرأ على ترتيب أبواب الرسالة ، نأتى بالخطتين معاً على شكل مقارنة في الجدول التالي:

(١) الرسائل، ج١، ص ٨٨-٨٩.

(٢) الرسائل، ج١، ص ٨٩.

الخطبة (١)

الخطبة (٢)

أصول الحب	أصول الحب
باب في ماهية الحب	باب في ماهية الحب
باب في علامات الحب	باب في علامات الحب
باب في ذكر من أحب في النوم	باب في ذكر من أحب في النوم
باب فيه ذكر من أحب بالوصف	باب فيه ذكر من أحب بالوصف
باب في ذكر من أحب من نظرة واحدة	باب في ذكر من أحب من نظرة واحدة
باب فيه ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة	باب فيه ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة
باب التعريض بالقول	باب التعريض بالقول
باب الإشارة بالعين	باب الإشارة بالعين
باب المراسلة	باب المراسلة
باب السفير	باب السفير
أعراض الحب وصفاته المحموده والمذمومة	أعراض الحب وصفاته المحموده والمذمومة
باب الصديق المساعد	باب الصديق المساعد
باب الوصل	باب الوصل
باب طي السر	باب طي السر
باب الإذاعة	باب الإذاعة
باب الطاعة	باب الطاعة
باب المخالفة	باب المخالفة
باب العاذل	باب العاذل
باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها	باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها
باب القنوع	باب القنوع
باب الوفاء	باب الوفاء
باب الغدر	باب الغدر
باب الضنى	باب الضنى
باب الموت	باب الموت
آفات الداخلة على الحب	آفات الداخلة على الحب
باب العاذل	باب العاذل
باب الرقيب	باب الرقيب
باب الواشي	باب الواشي
باب الهجر	باب الهجر
باب البين	باب البين
باب السلو	باب السلو
الختم	الختم
باب قبح المعصية	باب قبح المعصية
باب فضل التعفف	باب فضل التعفف

تري ماذا كان يقصد ابن حزم من وراء ذكره لخطتي الكتاب معاً ؟  
في الحقيقة ليس لدينا جواب قاطع على تساؤلنا ، وكل ما يبدو لنا من خلال عمله هذا أنه أراد أن يطلع القارئ على صناعته في الكتابة من جهة ، ويبين له إعمال عقله ومنطقه في كل ما يكتب من جهة أخرى ، وإلا فكيف نفسر ذكره للخطتين معاً في الوقت الذي كان في استطاعته ان يكتفي بذكر الخطة التي انتهى إليها وارتضاها منهجاً لما يريد إيصاله .

### ٣- مضمون الطوق

يبدأ ابن حزم بتذكيرنا أن الدين لم يحرم الحب ثم يعرض إلى تعريفه وهو مقدر صعوبة وصفه لدقة معانيه ، وهو يتناول الحب بمعناه الواسع فيذكر حب القرابة وحب الطمع في الجاه وحب العشق والتحاب في الله وغير ذلك من أنواع ولا يراها بل تختلف مراتبها في الفصل .

ولم يتعرض ابن حزم إلى تعريف الحب عند غيره وإنما يعرض تعريفه الخاص أنه اتصال بين اجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في اصل عنصرها الرفيع <sup>(١)</sup> ثم يناقش هذا التعريف مناقشة منطقية لاثبات صحته والرد على ما قد يوجه إليه من مأخذ ويختتم تعريفه لماهية الحب بأنه داء لا دواء له سوى ممارسته .

فالدليل على أن الحب من ذات النفس وليس مرتبها بالصورة الجسدية أننا نجد من يحب شخصاً تنقصة بعض صفات الجمال الجسمي مع علمه بوجود من يستكمل هذه الصفات الجمالية ، بل ونجد من يحب من لا يساعده ولا يوافقه في أخلاقه مما يدل على أن الحب لا ينشأ عن الموافقة في الأخلاق " ..... فعلمنا أنه شيء في ذات النفس " <sup>(٢)</sup> .

(١) الرسائل ، ج ١ ، ص ٩٣ .

(٢) الرسائل ، ج ١ ، ص ٩٥ .

ويستدل على صحة تعريفه للحب بوجود تشابه بين المتحابين في الصفات وإن قل "...وكلما كثرت زادت المجانسة وتأكدت المودة فانظر هذا تراه عيانا".<sup>(١)</sup> ويرد على من قد ينقض تعريفه بالإشارة إلى حالة الحب غير المتبادل ، إذ إنه بمقتضى تعريفه فإن قوة الجذب متساوية بين الطرفين ، فيقول إن المحبوب الذي لا يستجيب لقوة الجذب الذي شعر به محبه تغشى نفسه بعض ..... الأغراض السائرة والحبب المحيطة بها من الطبائع الأرضية فلم تحس بالجزء الذي كان متصلا بها قبل حلولها حيث هي ولو تخلصت لاستويا في الاتصال والمحبة<sup>(٢)</sup>.

ويختتم تعريفه للحب بأنه " .... داء عياء وفيه الدواء منه على قدر المعاناة"<sup>(٣)</sup> ثم يفيض ابن حزم في الكلام عن علامات الحب وهو يرى أن علامات الحب قبل استعار ناره تختلف تماما عنها بعد الجهر به ، فبينما يعمد الحب إلى إيمان النظر إلى المحبوب والانصات إليه ومحاولة إرضائه أو اظهار المحب لمحاسن في نفسه ليست له الى غير ذلك ، نجده بعد الجهر بالحب كثير الغمز الخفي وتعتمد لمس المحبوب سريع الرضى بعد الغضب ، ويمضي ابن حزم الى استعراض كثير من العلامات التي تختلف باختلاف شخصيات المحبين .

وبعد أن ينتهي ابن حزم من الكلام عن علامات الحب ينتقل الى مجموعة أخرى من الأبواب يعالج فيها أسباب الحب ويناقش الدوافع التي تحدو شخصاً الى التعلق بآخر ويتدرج ابن حزم من تقديمه لهذه الأسباب من أكثرها سطحية إلى الأكثر عمقا ويعتمد على منطق عقلي بحث في قياسية لمدى سطحية أو عمق الأسباب ، فيبدأ بذكر من أحب طيفا رآه في الحلم ويستسخر ابن حزم هذا الدافع ويراه ظاهرة لا تدوم نابعة من التمني وتخيل الفكر .

ثم ينتقل إلى من يسمع وصفاً لصفات شخص لم يره فيقع في حبه وقد يتطور ذلك إلى التراسل أو الوجد والسهر دون التقاء ، ورغم تسليمه بما للحكايات

(١) الرسائل ، ج ١ ، ص ٩٧ .

(٢) الرسائل ، ج ١ ، ص ٩٥ .

(٣) الرسائل ، ج ١ ، ص ١٠٠-١٠١ .

وهذا الحب الصادق الذي يسمية ابن حزم العشق لا يخالف تعريفه الذي قدمه للحب بأنه " ... اتصال بين النفوس في أصل عالمها العلوي بل مؤكد له .. " لأن هذا الاتصال لا يتحقق إلا بعد المعرفة الصحيحة لنفس المحبوب وتجاوز الحجب التي تحول بين نفس المحب ونفس المحبوب .

ويفرق ابن حزم بين الشهوة والعشق ، فسر الشهوة ومعناها استحسان جسدي " واستطراف البصر الذي لا يجاوز الألوان " فإذا استنفذت الشهوة وتجاوزت هذا الحد ووافق الفضل اتصال نفساني تشترك فيه الطباع مع النفس " سمي هذا عشقاً .

ويستطرد ابن حزم من هذا المنطق لينفي احتمال عشق اثنين في آن واحد ويدخل ذلك من ضرب الشهوة لأن الذي يحب حب العشق يكون مشغولاً تماماً بمحبوبه ولا يستطيع قلبه أن ينصرف إلى آخر ، ويشير ابن حزم في نهاية هذا الباب إلى أهمية الاتصال الجسدي وأنه يولد المحبة إذا وافق أخلاق النفس " إذ الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها " (١) .

وينتهي ابن حزم كلامه عن أسباب الحب بعرض ظاهرة توضح سلطان الحب على النفوس وأحكامه الماضية التي تترك آثارها في النفس حتى بعد انقضاء الحب وذلك أن بعض من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها وإن كانت هذه الصفة ليست بمستحسنه عند الناس ولا ترضي الجمال وجميع الصفات والأمثلة التي يضربها عن صفات جسدية تتعلق بالصورة لا النفس ، مثل قصر القامة أو وقص الجيد أو شقرة الشعر ، بل يذهب ابن حزم إلى تسلط مثل هذه الظاهرة على نفوس الجماعات أيضاً ويضرب مثلاً جماعة خلفاء بني مروان الذين جبلوا على تفضيل الشقرة .

وبعد ان قدم ابن حزم أسباب الحب يستطرد إلى الحديث عن أنماط سلوك المحبين في التعبير عن هذه العاطفة التي تمكنت ، ويبدأ بالتعريض بالقول ، فيعرض أساليب مختلفة يسلكها المحبون لأشعار المحبوب بحبهم قبل المصراحة والإعلان وذلك إما تلميح بالقول عن طريق الشعر أو حديث غير مباشر يكون

(١) الرسائل ، ج ١ ، ص ١٢٨ .

بمثابة تحسس لمدى استجابة المحبوب لهذه العاطفة وتقبله لها ثم يتلو ذلك فترة انتظار من جانب المحب لمعرفة انعكاس ذلك على المحبوب ويستعرض ابن حزم أنواع التعريض بالقول استعراضاً رقيقاً جميلاً فطناً يفرق فيه بين مختلف الناس بقدر اختلاف مداركهم وبحسب ما يلقونه من أحببتهم من نفار أو أنس من فطنة وبلادة .. فإن رأى المحب استجابة وتشجيعاً زاد وتمادى ثم انتظر الجواب بلفظ أو بحركة أو بهيئة الوجه، ويتعاطف ابن حزم مع المحب وهو في هذا الموقف المؤثر الذي يقفه بين الرجاء واليأس . أما بعد المكاشفة بالسحب بين المتحابين فإن التعريض بالقول يتخذ شكلاً مختلفاً في صورة حوار خفي بينهما لا يفتن إليه سواهما تتعد به المواعيد ويقع التشكي ولايستتبط السامع لهما مايرميان إليه من معان إلا إذا كان فطناً ذكياً وله تجربة سابقة تعينه على تفهم ما يقع امامه .

ويتلو ذلك من نماذج سلوك المحبين " الاشارة بالعين " إذا وقع القبول والموافقة والنظرات التي يتبادلها المحبان اللذان تصارحا تكون معبرة أبلغ التعبير فالعين هي الباب المفتوح إلى القلب وهي خير واسطة للتعبير عن المشاعر ، ويبلغ لفظ العين مبلغاً عجباً في الاتصال بين المحبين فيه يقطع ويتواصل ويوعد ويهدد ويقبض ويبسط ويأمر وينهى وتضرب به الأوعاد وينبه إلى الرقيب ويضحك ويحزن ويسأل ويجاب ويمنع ويعطى ويصف ابن حزم لغة العيون فيقول إن لكل اشارة معنى ولكن يصعب تفسيرها بالكلمات ولا تدرك الا بالمشاهدة .

ثم يتلو ذلك إذا امتزجا "المراسلة " ورغم مخاطرها في فضح المتحابين فإن لها لذة " .... يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية وإن لرد الجواب والنظر إليه سرورا يعدل اللقاء معه ، ولعهدي ببعض أهل المحبة .. لا يدع المراسلة وهو ممكن الوصل قريب الدار داني المزار .. " ويلجأ البعض للمراسلة حياء أو تهيباً كما ينبغي أن يكون الكتاب جميل الشكل مليح الجنس " .

أما إرسال " السفير " فيكون " بعد حلول الثقة وتام الاستئناس " ويوضح ابن حزم خطر السفير وضرورة حسن تخيره إذ أن " .... بيده حياته وموته وستره وفضيحته .. " وهو يذكر باب السفير حتى لا يغفل أحد أساليب المحبين رغم نفاره منه " لقطع المضار منها وقلة الثقة بكل أحد " .

ثم يأتي باب " طي السر " وهو يتناول موقف المحب من المجتمع بعدما كان ابن حزم يناقش العلاقة بين المحبين فهناك من يخفي حبه عن الأعين ويعتبر ابن حزم هذا الموقف من صفات الحب ولهذا الاخفاء أسباب نفسية او اجتماعية . ربما يكون السبب الأول خجل المحب من أن يتصف بهذه الصفة بين الناس ويستخف ابن حزم هذا السبب لأن الحب ليس خطأ ولا محرماً طالما تعفف عن المحارم التي يأتيها باختياره ويحاسب عليها وقد يكون السبب حفظ المحب لسمعة المحبوب وهذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع .

وربما كان السبب خوف المحب على نفسه لجلالته قدر المحبوب فإن اظهر سره بطش به صاحب السطان .

وربما كان لئلا ينفر المحبوب ويشهر به فلو باح المحب بعاطفته انقطعت الصلة بينهما .

وقد يكون السبب الحياء الغالب على الطبع أو عندما يرى من المحبوب انحرافاً وصدا فيستتر المحب إذا كان أبي النفس يريد أن يجنبها شماتة العدو أو الشعور بالخذلان وعكس طي السر إذاعته وكما يستحسن ابن حزم الطي يستتكر الإذاعة والتشهير من الرذائل مهما كان السبب الداعي إليه والأسباب التي تدعو إلى الإذاعة :

١- أن يرد الإنسان أن يتباهى بحبه كي يعد من المحبين وهذا تزييف وادعاء لا معنى له .

٢- أن يتغلب الحب على نفس الانسان ولا يقدر على التحفظ ولا يستطيع التمييز بين الحسن والقبيح : وربما كان من أسباب الكشف غلبة الحب وتسور الجهد على الحياء فلا يملك الانسان حينئذ لنفسه صرفاً ولا عدلاً وهذا من أبعد غايات العشق وأقوى تحكمه على العقل " وتكون نتائج الإذاعة تباعد المحبوب ونفاره والإذاعة في أية حال في رأي ابن حزم سوء تصرف .

٣- الرغبة في الانتقام من محب نفر وهجر .



٤- ربما يكون كشف السر يوافق رغبة المحبوب وذلك إما لإعجاب وإما لأنه يأمل أن تتحقق أمانيه كذلك .

أما من ناحية العلاقة بين المحب والمحبوب .

فان المحب عبد للمحبوب فهو في بعض الأحيان يستسلم له تماما وتصل به الرغبة في نيل رضى المحبوب إلى تغيير طباعه حتى تشبه طباع محبوبه "وربما ترى المرء شرس الخلق صعب الشكيمة جموح القياد ماضي العزيمة حمي الأنف أبي الخسف فما هو إلا أن يتنسم نسيم الحب ويتورط غمره ويعوم في بحره ، عادت الشراسة ليانا والصعوبة سهالة والمضاء كلاله والحمية استسلاما ، هذا من الناحية النفسية اما من حيث التصرفات فيقبل المحب كل ما يقوله محبوبه ويطيعه طاعة عمياء ولا يخالفه أبداً وإن ظلم .

وربما تبرم المحبوب بسماع الوجد فيكتم المحب حزنه وإن تجنى الحبيب فعند ذلك يقع الاعتذار والاقرار بالجريمة والمرء منها برئ تسلميا لقوله وتركها لمخالفته .

وللمحبوب الغلبة في هذا الموقف فيجفو ويرضى متى شاء لا لمعنى ولا يلحق المحب أي ذل لأن للهوى سلطانا ، وعلى المحب أن يطيع محبوبه ويحرص على رغباته حتى إذا كان في ذلك تضحية للمحب بحبه وهذه أعلى مراتب التضحية ولا يعترف ابن حزم بهذا ويدخل في مناقشة جدلية طويلة .

وعكس الطاعة المخالفة وربما اتبع بعض المحبين شهوتهم لا يحاولون إرضاء المحبوب وفي بعض الأحوال تكون هذه هي الوسيلة التي تحقق لهم أغراضهم .

بعد الحديث عن صفات الحب والجهل والكتمان وموقف المحب من المحبوب يتناول ابن حزم الحديث عن الأشخاص الذي يلعبون دورا هاما في علاقة المحبين ويبدأ البحث بباب العاذل ثم ضده باب المساعد من الاخوان ثم باب الرقيب والواشي ثم بعد ذلك سيتناول أعراض الحب ثانياً ويعتبر أن هؤلاء الأشخاص عدا المساعد من الاخوان طبعاً من آفات الحب .  
وأول آفات الحب العاذل ويقسم ابن حزم العاذل الى قسمين :

الأول له دور ايجابي ومفيد لأنه صديق يحسن الحديث والارشاد فيكون عدله للمحب أفضل المساعدات وأهم صفه تصف بها حسن اختيار توقيت الكلام لانه " عالم بالأوقات التي يؤكد فيها النهي ، وبالأحيان التي يزيد فيها الأمر والساعات التي يكون فيها واقفاً بين هذين على قدر ما يرى من تسهل العاشق وتوعره وقبوله وعصيانه " ويكون هذا الشخص أقرب إلى الناصح منه إلى العاقل.

أما القسم الثاني فله دور سلبي فهو أقرب إلى اللائم لأنه لا يفعل شيئاً إلا أنه دائم الزجر والملامة .

أما موقف المحب من العاقل فهو إما قابل العذل بصدر رحب وإما رافض استغزاً لعادله واستلذاذا بمخالفته .

و ضد العاقل المساعد من الاخوان .

وهذا شخص دائماً موجود بجانب المحب فهو في حاجة شديدة إلى من يتحدث إليه ويبوح له بسرره لأن المرء لا يستطيع تحمل هذه التجربة بمفرده ولكن يجب أن يتصف هذا الصديق بصفات شتى يندر توفرها عند أحد فيجب أن يكون : مخلصاً ، لطيف القول بسيط الطول حسن المأخذ... مرهف اللسان جليل الحلم واسع العلم قليل المخالفة ... الخ .

ولكن أين هذا الشخص ؟ فان ظفرت به يداك فشدهما عليه شد الضنين فمعه يكمل الأنس وتتجلي الأحزان ويقصر الزمان وتطيب الأحوال .

وإن النساء يقمن خير قيام بهذا الدور وتكون العجائز أقدر على كتمان السر من الفتيات لأنهن يئسن من أنفسهن .

من آفات الحب أيضا الرقيب والرقباء ألوان ومهما كان نوعهم فهم آفات .

النوع الأول : الرقيب غير المتعمد الجاهل بأمر المحبين الذي جلس في

مكان اجتمع فيه محبان وافسد خلوتهما .

النوع الثاني : الرقيب الذي شعر بأن هناك علاقة بين المحبين ويريد

تقصي أمرها.

النوع الثالث : الرقيب على المحبوب وفي بعض الاحيان يستطيع المحبان استرضاءه ولكن كثيرا ما يحدث العكس وعلى المحبين اللجوء إلى الإشارة للتعبير عن حبهما .

أصعب أنواع الرقباء هؤلاء الذين امتحنوا بالحب وعرفوا كل معانيه وإذا أحب أثنان محبوباً واحداً يصبح كل واحد منهما رقيباً على الآخر .  
ومن آفات الحب ايضاً الواشي .

والوشاة ايضاً ألوان على حسب الغرض المحرك للوشاية وهناك من يريد التفريق بين المحبين فقط ، ومن يريد التفريق لغرض شخصي ومن يريد التشهير بالمحبين .

وتكون الوشاية للمحبوب لأنه مشغول بما هو فيه ولا يأبه بأي شيء آخر .  
أما عن طريق الوشاية فمنها أن يذكر للمحبوب أن من يحبه غير كاتم للأسرار أو أنه غير صادق في محبته أو أنه يحب غيره .

الحالة الاولى : تحل بالمواجهة والجفاء والتحفظ ولكن إذا وضح الموقف وأكد المحب لمحبوبه عدم صحة هذه الدعاية عادت الامور الى ما كانت عليه .  
أما الحالة الثانية : فيمكن للمحبوب الوثوق من حب صاحبه من تصرفاته لأن شواهد الحب واضحة .

أما الحالة الثالثة : فهي أسوأ الثلاثة وفي بعض الاحيان يحاول المحبوب أن ينتقم من المحب ظناً أنه خائن فكم صريع على هذا السبب وكم من سقي السم يقطع أمعاءه لهذا الوجه .

وبعد ذلك يستطرد ابن حزم في حديث طويل عن ماهية النميمة والكذب ويورد كثيراً من الأحاديث والآيات القرآنية التي تحث على تجنب الكذب .  
أما تنويع الحب فبالوصل .

يضع ابن حزم الحب في المقام الأول ويفضله على كل المشاعر الأخرى ويعتبر أن السعادة التي يحققها المرء من خلال لقائه مع محبوبه الذي يبادل نفس الشعور أرقى أنواع السعادة وأكملها ويصف الوصل بين المتحابين بأسلوب

شاعري مليء بالانفعال ويقارن بين السعادة التي يمكن نيلها في الوجوه المختلفة من الحياه وسعادة الحب فيقول عن خبرة شخصية :

" لقد جربت اللذات على تصرفها وأدركت الحظوظ على اختلافها فما للدنو من السلطان ولا المال المستفاد ولا الوجود بعد العدم ولا الأوية بعد طول الغيبة ولا الأمن بعد الخوف ولا النزوح على المال من الموقع في النفس ما للوصل ... " ويكون لانتظار الوصل وقع جميل على نفس المحب ويسعد باقتران موعد زيارة محبوبه .

ثم يطرح ابن حزم مشكلة الملل ويقول إن بعض الناس يزعمون أن الوصل المتكرر يولد الملل في نفس المحب ولكن في رأي ابن حزم هذه الظاهرة لا توجد في حب العشق بل إن الوصل المستمر يقرب المتحابين ويوطد الحب. وأرفع مراتب السعادة الانسانية سعادة الحب الذي ينمو في ظروف مثلى وما في الدنيا حالة تعدل متحابين توفرت لهم كل الظروف :

اجتماعياً : "محبين عدما الرقباء وأمنا الوشاة" .. " وفقدا العذال " .

اقتصادياً : " أتاح الله لهما رزقاً داراً وعيشاً قاراً " .

سياسياً : " وزمانا هادئاً " .

ونفسياً : سلما من البين ورغبا عن الهجر وبعدا عن الملل وتوافقا في الأخلاق وتكافيا في المحبة " .

وأخلاقياً : " وكان اجتماعهما على ما يرضي الرب من الحلال " .

ولولا أن الدنيا لا أمان لها لأن هناك اموراً لا يستطيع الانسان أن يحسبها مثل الفراق الذي يمكن أن يحدث أو الموت الذي يمكن أن يصيب المحبين في شبابهما لقليل إن هذه هي الحياة المثالية و " حال بعيدة من كل آفة وسليمة من كل داخله " .

والهجر ضد الوصل ويتسلسل تصنيف ابن حزم حسب خطورة الموقف ف يبدأ بهجر ليس بهجر ولكن تظاهر اللامبالاة وهذا النوع يفرضه على المحبين وجود رقيب وأنه لأحلى من كل وصف يقول ابن حزم " ولولا أن حكم التسمية يوجب إدخاله في هذا الباب لاجلته عن تسطيره فحينئذ ترى المحب منحرفاً عن

محبوبه مقبلا على غيره وترى المحبوب أيضا كذلك ولكن طبعه له جاذبا ونفسه له صارفه فتراه حينئذ منحرفاً وساكتاً كناطق .

ثم هجر يمتحن به المحبوب صبر محبه ولذلك لا يكون الا عن ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه والا فتحاشاه .

ثم هجر يوجبة ذنب من جهة المحب ويستعمل المحبوب الهجر كوسيلة من وسائل العتاب . ويكون الوصل بعد الهجر في هذه الحال جميلا جداً ، وبالرغم من أن هذا النوع شديد الوقع على نفس المحب ، فإنه يضاعف فرحة الرجعة واستمتاعه برضى المحبوب بعد سخطه .

والتجني بعض عوارض الهجران ويقع في أول الحب وفي آخره . أما في أوله فهو علامة المحبة وفي آخرها علامة لفتورها ، وإذا كان قليلاً فهو مصدر لذة أما إذا تفاقم فهو غير محمود .

ثم هجر يتسبب فيه الوشاة وتكون الوشاية سببا في المقاطعة .

ثم هجر الملل ويقع هذا النوع من قبل المحبوب عامة ولكن من تزيا بهذه الصفة فليس من أهل المحبة .

ويقع الهجر من جانب المحب عندما يرى جفاء من محبوبه " فيرى الموت ويتجرع غصص الأسى والعض على نقيف الحنظل أهون من رؤية ما يكره فينقطع وكبده تنقطع " .

ثم في النهاية هجر القلى ، وهذا يحدث عندما يقابل المحبوب حب المحب بامتناع ، في هذه الحال يجب على المحب أن يحاول إرضاء المحبوب بكل الوسائل وإذا فشل فلا يجد أمامه سبيلاً سوى السلو أو البحث عن بديل يعوضه هذا الحب المفقود .

يتعرض ابن حزم بعد ذلك لباب الوفاء فهو أفضل الصفات والأخلاق ومن " أقوى الدلائل وأوضح البراهين على طيب الأصل " ولا يقصر ابن حزم الوفاء على المحبين فحسب بل يجعله صفة واجبة على المرء في كل معاملاته مع الناس ولا سيما في الصداقة .

أول مرتبة من مراتب الوفاء أن يفي الإنسان لمن يفي له هذا فرض لازم على المحب والمحبوب ومن لا يسلك هذا السبيل فهو دنيء الأصل لا مبدأ له ولا أخلاق .

ثاني مرتبه من مراتب الوفاء أن يفي الإنسان لمن غدر . وهذه مرتبة أعلى من الأولى وأشرف ، لأنها ليست من مستلزمات الموقف . فإن غدر بمن غدر فهو لا يستحق الملامة وغاية الوفاء في هذه الحالة عدم مقابلة الأذى بمثله رجاء في عودة الأمور إلى ما كانت عليه . فإذا وقع اليأس واستحكم الغيظ فالحنين إلى الماضي وعدم نسيان ما انقضى أثبت الدلائل على صحة الوفاء وهذه صفة حسنة جدا ..

أما ثالث مراتب الوفاء فهي مع اليأس التام كما في حالة الموت .

ويفرق هنا ابن حزم بين المحب والمحبوب . وجعل الوفاء ألزم على المحب منه على المحبوب بحجة أن " المحب هو البادئ بالالصوق والتعرض لعقد الأزيمة والقاصد لتأكيد المودة والمستدعي صحة العشرة .. (في حين أن) المحبوب إنما هو مجلوب إليه ومقصود نحو ومخير في القبول أو الترك فإن قبل فغالة الرجاء وأن أبى فغير مستحق للذم .."

وللوفاء شروط على المحبين لازمة فأولها أن يحفظ عهد محبوبه ويرعى ذمته ويستتر علانيته وسريته ويطوي شره وينشر خيره ويغطي عيوبه ويحسن أفعاله ويتغافل عما يقع منه على سبيل الهفوة ويرضى بما حمله ولا يكثر عليه بما ينفر منه .

من آفات الحب الغدر وهو عكس الوفاء وهو من أقبح الصفات التي يمكن أن يتصف بها انسان .

ولم يصنف ابن حزم الغدر كما فعل بالوفاء . ولكن يشير إلى نوع واحد منه وهو أن يكون للمحب سفير إلى محبوبه يثق به ويستريح إليه فيسعى السفير إلى الاستئثار بالمحبة وينجح في سعيه .

ومن آفات الحب البين أو البعد ، ولكنه سنة الحياة فلا بد لكل مجتمع من افتراق ولكل دان من فناء .

وقد قال أحد الحكماء إن الفراق أخو الموت فليل بل الموت أخو الفراق .  
والبين على أنواع تختلف باختلاف السبب الموجب له . فهناك بين لمدة  
محدودة وبين هو بمثابة منع من اللقاء أو حظر على المحبوب من أن يراه المحب  
، وبين يتعمده المحب تجنباً لأقوال الوشاة ، ثم بين الموت وهو الفوت أو الهول  
الأكبر لأنه غياب لا يرجى منه إياب وهو الكارثة العظمى التي يبتلى بها المحبان  
ولا علاج لها ولا حيلة سوى الصبر طوعاً أو كرها ... والنوح والبكاء إلى أن  
يتلف المرء أو يمل .

ثم يعتقد ابن حزم مقارنة بين الهجر والبين وأيهما أشد وقعا على النفس .  
وإذا حرم المحب من الوصل فعليه أن يقنع بما يتاح له من فرص وفي هذا  
البديل ربما يجد راحة للنفس .

والقنوع مراتب تختلف على قدر الإصابة والتمكن فمنها الزيارة وتبادل  
السلام والمخاطبة والاحتفاظ بالأشياء التي تخص المحبوب مثل خصل الشعر .  
من القنوع أيضاً أن يرضى المحب بمزار طيف محبوبه في النوم أو أن  
يرضى بالنظر إلى الجدران التي تحوي المحبوب .

أو أن يرضى الإنسان بالمشاركة فيمن يحب ويستكر ابن حزم هذا الموقف  
بشدة .

وربما يقع للمحب الصادق الذي لا يستطيع أن يجتمع بمحبوبه بعض العلل  
النفسية والجسمانية تختلف عن العلل التي يكون سببها بيولوجي "فالأعراض الواقعة  
من المحبة غير العلل الواقعة من هجمات العلل ويميزها الطبيب الحاذق والمتفرس  
الفاقد ... " .

وفي هذا الصدد يروى لنا بعض الحالات التي سعى عنها ، وأدى الحب  
فيها بصاحبه إلى الخبل الجنون ، وذلك لسيطرة المحبوب على ذهنه وتغلب  
الأفكار السوداوية على نفسيته ، ويقول أيضاً أن في البداية يمكن معالجة المرض  
إما بالوصل وإما بوسائل أخرى ولكن إذا استفحلت الحالة فلا يقدر لها علاج ،  
وابن حزم يعتبر الجنون مرضاً من الأمراض يمكن علاجه ومداواته فيقول:

" هذا إنما يتولد عن إيمان الفكر فإذا غلبت الفكرة وتمكن الخلط السوداوي خرج الأمر عن حد الحب إلى حد الوله والجنون وإذا اغفل التداوي في أوائل المعاناه قوي جدا ولم يوجد له دواء سوى الوصال ... " .

ولكن كل ماله أول فلا بد من آخر وأعراض الدنيا نافذة فانية وزائلة مضمحلة وبما أن الحب من هذه الأعراض فهو خاضع لهذه السنة فعاقبته أحد أمرين " فإما اخترام منية وإما سلو حادث " ويخصص ابن حزم بابا بأكمله لتحليل هذه الظاهرة .

وفي هذا الباب يفرق ابن حزم بمنتهى الدقة بين ( السلو والتصبر ) فهناك سلو طبيعي وهو ما يسمى بالنسيان " يخلو به القلب ويفرغ به البال ويكون الانسان كأنه لم يحب قط " وآخر سلو طبيعي ؟ بقهر النفس وهو المسمى بالتصبر " فترى المرء يظهر التجلد وفي قلبه أشد لدغا من وخز الابر " .

ثم ماهي الأسباب الموجبة للسلو أو للتصبر وهل صاحبها ملام أم لا ؟ إن الأسباب الداعية للسلو ثمانية: ثلاثة ، من قبل المحب وهي الملل و الاستبدال والأتي بهما مذموم . ويكون في بعض الأحيان السلو سببه الحياء ففي هذه الحالة يذم السالي ويعذر المتصبر ، وأربعة أسباب صاحبها المحبوب ، واحد يذم فيه السالي وهو الهجر ، وثلاثة لا يذم السالي فيها على أي وجه كان ناسيا أم متصبرا وهي النفار والجفاء والغدر . أما السبب الثامن فهو خارج عن إرادة الإنسان : فهو أما الموت وإما بعد لا يرجى بعده عودة وإما لعدة مزمنة طرأت على المحب وهذه جميعا تدخل تحت باب اليأس .

وفي بعض الأحيان لا يقدر المرء لا على السلو ولا على التصبر " فربما تزايد الأمر ورق الطبع وعظم الاشفاق فكان سببا للموت ومفارقة الدنيا " . وقد جاء في الآثار " من عشق فعف فمات فهو شهيد " . ويصور ابن حزم حالات قد حدث فيها مثل هذا . ومن هذه القصص قصة أختة وزوجته التي لم تقدر على الحياة بعد زوجها ففارقت الدنيا بعده بسنة .

ويتم ابن حزم رسالته ببابين طويلين عن قبح المعصية وفضل التعفف ويبدأ حديثه عن قبح المعصية بتحليل مستفيض عن النفس البشرية ، فقد ركب الله في



الانسان طبيعتين متضادتين إحداهما لا تشير إلا بخير ولا تحض إلا على حسن وهي العقل وقائدها العدل . والثانية ضد لها لا تشير إلا إلى الشهوات ولا تقود إلا إلى الردى وهي النفس . فهاتان الطبيعتان قطبان في الإنسان لا يتقابلان أبداً. فلذا غلب العقل النفس اتبعت العدل ، وإذا غلبت النفس العقل عميت البصيرة ويسوي هنا ابن حزم بين الرجل والمرأة فالرجال والنساء سواء في المقدرة على قمع الشهوة — بعكس ما وقع في ظن الكثيرين — فقد وجدت صالحات من النساء كما وجد صالحون من الرجال ، والمهم في التعفف هو ضبط الإرادة وحسن توجيه الانتباه ، فقد جعلت النظرة الأولى لك والأخرى عليك ، وابن حزم يذكرنا بأن بنية الانسان مدخولة ضعيفة فلا بد من تجنب أسباب الخطر والتحامي بالذات عن مواطن الغواية إذا أريد ضبط النفس وامتلاك زمام الذات ، وكم أدى طول الاختلاط وكثرة التنافس على النساء إلى سفك الدماء وإزهاق الأرواح . كم كانت الغيرة سبباً في تعادي المواطنين وتباغضهم بعد المحبة ، ويؤكد ابن حزم أن المودة إذا استحالت إلى عداوة صارت أقطع من الموت ، وأنفذ من السم ، وأمر من السقم وأوحش من زوال النعم وأقبح من حلول النقم .

ويختتم ابن حزم رسالته بالحديث عن فضل التعفف والإشادة به وترك ركوب المعصية والفاحشة فيقول :

"إن الرسول قد خص بمدحه " رجلاً دعت امرأته ذات حسب وجمال فقال إني أخاف الله " وليس عند الله معصية أقبح من الزنا .

#### ٤ - بنية طوق الحمامة الفنية:

يرى الدكتور احسان عباس أن نثر ابن حزم في كتابه طوق الحمامة يقوم على ثلاثة طرائق مختلفة " تجيء أحياناً مجتمعة ، في الفصول الطويلة فينتقل القارئ فيما بينها نقلات مريحة وتلك الطرائق هي : التقرير والخبر أو الحكاية والوصف الفني، ويجمع بينها التكتيف المتعمد استجلاباً للقوه في طبيعة الأسلوب

وطلبا للتأثير وإن كانت الحكاية غالباً أقلها حظاً من ذلك وبليها في الإكثار منه التقرير ثم ينفرد الوصف الفني بالمبالغة في التكتيف" (١) .

ويمكن أن نضيف إلى هذه الطرائق الثلاثة التي أشار إليها الدكتور احسان عباس طريقة رابعة تتمثل في التحليل فهي الأخرى قد اعتمدها ابن حزم في جوانب متعددة من بحثه كما سنبين ذلك في حينه.

وبعد هذه النظرة العامة حول بنية طوق الحمامة الفنية ، نحاول فيما يلي عرض هذه الطرائق الأربعة بشيء من الدراسة منع إظهار مزايا ودور كل منها في الكتاب.

#### أ- التقرير

يحاول ابن حزم من خلال تقريره أن يحيط بالشيء الذي يكتب عنه من جميع الجوانب ، وهذا ما يجعل هذا التقرير يمتاز بالتكتيف . وحشد الكثير من الصفات ، والكاتب في ذلك إنما يريد أن يفيد المتلقي تعريفاً وإيضاحاً و" يتراوح التقرير في حظه من التكتيف بين الإقلال والإكثار " (٢) وذلك حسب طبيعة الموضوع الذي يتناوله ابن حزم بالعرض. ومن أمثلة النوع الأول قوله في باب الطاعة " ومن عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لمحبيه ، وصرفه طباعه قسراً إلى طباع من يحبه، وترى المرء شرس الخلق ، صعب الشكيمة، جموح القيادة ، ماضي العزيمة ، حمي الأنف، أبي الخسف، فما هو إلا أن يتنسم الحب ، ويتورط غمره ، ويعوم في بحره ، فتعود الشراسة لياناً ، والصعوبة سهلة ، والمضاء كلاله ، والحمية استسلاماً" (٣).

كما نرى فابن حازم يتابع في تقريره هذا حال المحب ابتداء من الحديث عن الطاعة ، فتصوير حاله قبل الهوى ثم وصف حاله وما يطرأ عليه من تغيير

(١) رسائل ابن حزم الأندلسي ، تحقيق احسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت

(ط) ١٩٨١ ج ٢ ص ٨١.

(٢) من تصدير إحسان عباس رسائل ابن حزم ج ٢ / ص ٨١.

(٣) الرسائل، ج ١، ص ١٥٣.

بعد وقوعه في الحب، وذلك بلغة مناسبة ومؤدية إلى الغرض بأقصر العبارة وأجزلها.

وهذه سمة نجدها أيضا في تقريره الذي يمتاز بالتكثيف الكثير، ولعل أبلغ مثال نستشهد به في هذا المقام ، ماكتبه عن حال المساعد من الإخوان حيث يقول : "ومن الأسباب المتمناه في الحب ، أن يهب الله عز وجل للإنسان صديقا مخلصا لطيف القول بسيط الطول ، حسن الأخذ دقيق المنفذ، متمكن البيان ، مرهف اللسان ، جليل الحلم ، واسع العلم . قليل المخالفة ، عظيم المساعفة ، شديد الاحتمال ، صابرا على الإدلال . جمّ المرافقة ، جميل المخالقة ، مستوي المطابقة ، محمود الخلاق . مكفوف البوائق <sup>(١)</sup> محتوم المساعده كارها للمباعدة ، نبيل المداخل ، مصروف الغوائل <sup>(٢)</sup> ، غامض المعاني ، عارفا بالأمانى ، طيب الأخلاق ، سري الأعراق ، مكتوم السر، كثير البر ، صحيح الأمانة ..... وأين هذا ؟ فإن ظفرت به يداك فشدهما عليه شد الضنين ، وأمسك بهما إمساك البخیل وصنّه بطارك وتالدك ، فمعه يكمل الأنس وتتجلي الأحزان ، ويقصر الزمان ، وتطيب الأحوال ، ولن يفقد الإنسان من صاحب هذه الصفة عوناً جميلاً ، ورأياً حسناً " <sup>(٣)</sup> وواضح من خلال هذا التقرير أن الشخصية التي يريد أن يرسمها ابن حزم قد احتلت - كتميلتها في التقرير الأول - جميع الدورات ، فهو يبدأ بالحديث عن الأسباب المتمناه في الحب وهي أن يمنح الله الإنسان صديقا ، ومن ثم ينتقل إلى الكلام عن نوعية هذا الصديق فيحدد فضائله فيما يزيد عن خمسين جملة ، ثم يخلص إلى نصيحة مفادها أن يحافظ الإنسان على هذا النوع من الصديق إذا ما منحه الله إياه لما فيه من خير . ومن هنا نستطيع أن نقول ان ابن حزم كان ذا ذوق فني رفيع ، خبيراً بأنواع اللفظ. ومواقع جرسه لهذا جاءت الشخصية التي كان يريد رسمها واضحة المعالم ، كاملة الأوصاف.

(١) البوائق: ج : بانقة : الداهية ينظر اللسان ج ١٠ / مادة بوق.

(٢) الغوائل : ج : غائلة : الدواهي ينظر اللسان ج ١١ / مادة غول .

(٣) الرسائل، ج ١، ص ١٦٣-١٦٤.

## ب- الخبر والحكاية :

إن الخبر والحكاية في الطوق لا يعدو أن يكون عرضاً لحدث ما أتى بهما ابن حزم للتدليل على الفكرة التي كان يهدف إلى توضيحها، أو لقصد الفائدة واستخلاص العبرة . وقد أكثر الكاتب من الخبر في رسالته حتى بلغ أربعين خبراً، في حين لم يأت إلا بحكاية واحدة . ولسنا ندري لماذا فرق بينهما في التسمية مع أنهما يتشابهان في طريقة عرض الحدث ، اللهم بعض الاختلاف الطفيف الذي يتمثل في اتسام الحكاية بالحركة والحوار الفعال كما سنرى ذلك بعد حين .

وموضوع هذه الأخبار والحكاية معاً ، موضوع اجتماعي استقاه الكاتب من واقع الحياة الحضارية التي كان الناس يعيشونها في الأندلس آنذاك ، وهي تصور في صدق تام أحداثاً كانت تجري في مجتمعه رأها أو سمعها من رواة ثقات . وحسبنا هنا أن نأتي بأمثلة تبين ذلك ، فمن أخباره في قوله في باب الوفاء : " ومن أرفع ما شاهدته من الوفاء في هذا المعنى ، وأهوله شأناً قصة رأيته عياناً ، وهو أني أعرف من رضي بقطيعة محبوبه ، وأعز الناس عليه ومن كان الموت عنده أحلى من هجر ساعة في جنب طيه لسر أودعه ، والتزم محبوبه يميناً غليظة ألا يكلمه أبداً ، وليكن بينهما خبر أو يفصح إليه ذلك السر، على أن صاحب ذلك السر كان غائباً فأبى من ذلك وتمادى هو على كتمانها ، والثاني على هجرانه إلى أن فرقت بينهما الأيام " (١).

كما نرى فإن هذا الخبر مسوق في إطار الفائدة ، إذ أنه يلقي القارئ درساً، ويزوده بعبرة خلقية اجتماعية معناها الوفاء .

أما الحكاية التي أشرنا إليها قبل قليل، فقد أوردها ابن حزم في باب الموت ومفادها : أن رجلاً أندلسياً كان يحب جارية حباً جما ، ولفاقة أصابته باعها ليسدد ما عليه من ديون . ولما حصلت عند المبتاع كادت نفس الأندلسي أن تخرج من جسده لشدة هيامه بها ، فعمل على استرجاعها إلا أن المشتري رفض أن يردها إليه على الرغم من تدخلات أهل البلد ، فشكاه الأندلسي إلى الملك ، وتحاكما في

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢٠٦.

حضرته ، ولكن المشتري أصر على الاحتفاظ بها لنفسه ، ولم يتراجع عن ذلك البتة بحجة أنه هو أيضاً يحبها حباً مفرطاً .

يقول ابن حزم : " فلما يئس الأندلسي منها جمع يديه ورجليه وأنصب من أعلى العلية إلى الأرض فارتاع الملك وصرخ فابتدر الغلمان من أسفل ، فقضي أنه لم يتأذ في ذلك الوقوع كبير أذى ، فصعد به إلى الملك فقال : ماذا أردت بهذا ؟ فقال : أيها الملك لا سبيل لي إلى الحياة بعدها ، ثم هم أن يرمي نفسه ثانية ، فمنع ، فقال الملك : الله أكبر ، قد ظهر وجه الحكم في هذه المسألة ، ثم التفت إلى المشتري فقال : يا هذا انك ذكرت أنك أو دلها منه ، وتخاف أن تصير في مثل حاله ، فقال : نعم ، قال : فإن صاحبك هذا أبدى عنوان محبته وقذف بنفسه يريد الموت لولا أن الله عز وجل وقاه ، فأنت قم فصاح حبك وتزام من أعلى هذه القضية كما فعل صاحبك ، فإن مت فأجلك وإن عشت كنت أولى بالجارية ، إذ هي في يدك ويمضي صاحبك عنك ، وإن أبيت نزعت الجارية منك رغماً ودفعتها إليه ، فتمنع ثم قال : أترامي فلما قرب من الباب ونظر إلى الهوى تحته رجع القهقري، فقال له الملك : هو والله ما قلت ، فهم ثم نكل ، فلما لم يقدم قال له الملك : لا تتلاعب بنا، يا غلمان خذوا بيديه وارموا به إلى الأرض ، فلما رأى العزيمة قال : أيها الملك قد طابت نفسي بالجارية ، فقال له : جزاك الله خيراً ، فاشتراها منه ودفعها إلى بائعها وانصرفا" (١) .

لعل أبرز ما يميز هذه الحكاية اتسامها بالطابع القصصي الواقعي، فهي مفعمة بعنصر التشويق؛ مما يجعل القارئ ينشد إليها ويتابعها حتى النهاية . والمعروف أن الأقصوصة تقتصر عادة على شخصية واحدة تكون هي محور الأحداث أو تتعدى ذلك إلى بعض الشخصيات الأخرى تكون متصلة بها على نحو ما (٢) وهذا ما كان من خلال شخصية الرجل الأندلسي ، وهي الشخصية المحورية إلى جانب شخصيتي المشتري والملك . وهما الشخصيتان الثانويتان اللتان يكتمل بهما عمل ابن حزم القصصي .

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢٦٥-٢٦٦ .

(٢) ينظر القصة والرواية د. عزيزة مريدن- دار الفكر دمشق سنة ١٩٨٠ (بدون ط) ص ٧٣ .

وقد كانت فاقة الرجل الأندلسي ، وبيعه لجارية ، ثم محاولة استرجاعها بمثابة المرحلة الأولى من الحكاية ، أو ما يسمى بمرحلة عرض الموضوع او المقدمة .

وتعد مرحلة التحاكم وعدم استجابة المبتاع لطلب الأندلسي والملك معا مرحلة التشابك في الحكاية ، إذ منها يتأزم الوضع ويلقي البائع نفسه من أعلى العلية إلى الأرض ، ومن ثم يتطور الحدث القصصي لينتهي بعد ذلك إلى مرحلة الانفراج والنهاية ، بحيث يتراجع المبتاع ويتنازل عن الجارية لعدم قدرته على تأدية عنوان المحبة المتمثل في الثوب من الأعلى ومن هنا نستطيع أن نقول إن هذه الميزات التي اشتملت عليها حكاية ابن حزم جعلتها تتحول من مجرد حكاية إلى أقصوصة فيها موضوع ، وفكرة ، وشخصيات ، وحوار ، وعقده ، وتشويق ، وحل . ومن استعراض ما قدمنا نستطيع استبانة بعض الانطباعات أهمها :

- ١- ينقل ابن حزم في حكايته حادثة ينتزعها من حياة الناس العامة .
- ٢- إنها حكاية ممعنة في القصر ولكنها تامة وناضجة .
- ٣- تدور هذه الحكاية حول موضوع واحد هو بيع الجارية ومحاولة استرجاعها .
- ٤- يغلب عليها الإيجاز في العبارة والبساطة في تقديم الفكرة .
- ٥- ان اعتماد ابن الحزم على الحوار في سرد الحكاية أضفى عليها رشاقة وحيوية .
- ٦- اشتمالها على كثير من عناصر الأقصوصة مما جعلها تجري في مجراها.

### جـ - الوصف الفني :

إن الدارس لكتاب طوق الحمامة يدرك لا محالة أن صاحبه قد عني فيه بالوصف عناية كبيرة ، وهذا يدفعنا إلى القول إن فن الوصف كان له منزلة في نفس ابن حزم ، ساعده عليه ما كان يتمتع به من طاقة شعورية ، وجزالة العبارة ، وقوة التعبير .

وتكمن أهمية الوصف في طوق الحمامة في أنها تلقى الضوء على جوانب كثيرة من حياة صاحبها من جهة ، وحياة مجتمعه من جهة أخرى ، ولعل خير ما

نمثل به لهذا الأمر وصفه لدورهم ببلاط مغيث بعد خرابها إذ يقول : " ولقد أخبرني بعض الوارد من قرطبة ، وقد استخبرته عنها ، أنه رأى ببلاط مغيث ، في الجانب الغربي منها ، وقد امحت رسومها ، وطمست أعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيرها البلى ، وصارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيافي موحشة بعد الأنس ، وخرائب منقطعة بعد الحسن ، وشعاباً مفزعة بعد الأمن ، وماوى للذئاب ، ومعازف للغيلان ، وملاعب للجبان ، ومكان للوحوش ، بعد رجال كالليوث ، وخرائد كالدمى ، تفيض لديهم النعم الفاشية . تبدد شملهم فصاروا في البلاد أيادي سبا فكأن تلك المحاريب المنمقة والمقاصير <sup>(١)</sup> المزيّنة، التي كانت تشرق إشراق الشمس، ويجلو الهموم حسن منظرها ، حيث شملها الخراب وعمها الهدم، كأفواه السباع فاغرة تؤذن بفناء الدنيا وتريك عواقب أهلها وتخبرك عما يصير إليه كل من تراه قائماً فيها، وتزهّد في طلبها بعد أن طالما زهدت في طلبها، وتذكرت أيامي بها ولذاتي وشهور صباي لديها مع كواعب إلى مثلهن صبا الحليم ..... وكان ليلها تبعاً لنهارها في انتشار ساكنها والنقاء عمارها فعاد نهارها تبعاً ليلها في الهدوء والاستيحاش ، فأبكى عيني. وأوجع قلبي وقرع صفاة كبدي وزاد في بلاء لبي... " <sup>(٢)</sup> .

فابن حزم -كما نرى- يصف لنا في صدق صورة دورهم في حالي عمرانها وخرابها ، وانعكاس ذلك على نفسيته وتألمه لمصير أهلها القاسي ، معتمداً في ذلك على جمل متراسة متتابعة ، مما أضفى عليها حركة صوتية موقعة النغم في إطار من الحس الشعوري. ولهذا نجد النص تغلب عليه سمة المقابلة والانتقال بين الأضداد في الألفاظ والصور أو ما يسميه الدكتور الطاهر أحمد مكي بالطباق النفسي <sup>(٣)</sup> وابن حزم إلى جانب ذلك كله حسّي الوصف إذ أنه يشبه المنظور بالمنظور، كما يحسن التشخيص ، مما جعل صورة تتبض بالواقعية وتزخر بالحركة والحياة .

<sup>(١)</sup> المقاصير:ج:مقصورة : هي كل ناحية من دار واسعة محصنة الحيطان ينظر اللسان ج ٥/مادة قصر .

<sup>(٢)</sup> الرسائل، ج ١، ص ٢٢٧-٢٢٨ .

<sup>(٣)</sup> ينظر دراسات أندلسية الطاهر أحمد مكي ص ٢٣٩ .

## د - التحليل :

كما سبق الإشارة إليه فإن ابن حزم كان ينزع في كتابه طوق الحمامة إلى إظهار عمق تفكيره فيما يكتب ، ويرد الظواهر الإنسانية إلى بواعثها الأولى محاولاً الكشف عن النواميس النفسية التي تسيطر الإنسان في عواطفه وتصرفاته تجاه الإنسان الآخر . ومن هنا نستطيع أن نقول إن صاحبنا كان يعتمد في دراسته لأحوال العشاق واستظهار خفايا نفوسهم ، ونوعيات سلوكهم على المنهج الاستقرائي التجريبي <sup>(١)</sup> مما جعله يعالج ظاهرة الحب خير علاج ويدلي منها برأيه الصريح مستخدماً في ذلك ما وسعه من التحليل والبرهان . وفي الطوق أمثله كثيرة تؤكد ذلك ، منها هذا الذي كتبه في سر النماذج والتباين في المخلوقات إذ يقول : " وقد علمنا أن سرّ النماذج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال ، والشكل دأباً يستدعي شكله والمثل إلى مثله ساكن وللمجانسة عمل محسوس ، وتأثير مشاهد ، والتأثر في الأضداد والموافقة في الأنداد والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا فكيف بالنفس وعالمها العالم الصافي الخفيف وجوهرها الصعاد المعتدل وسنخها <sup>(٢)</sup> المهيأ لقبول الانفاق والميل والتوق والانجراف والشهوة والنفار . كل ذلك معلوم بالفطرة في أحوال تصرف الإنسان فيكون إليها والله عز وجل يقول : { هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها } <sup>(٣)</sup> فجعل علة السكون أنها منه " <sup>(٤)</sup> .

ومثل هذا التحليل الدقيق نجده أيضاً في حديثه عن الإنسان الذي أحب بالوصل حيث يقول : " ومن غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المعاينة ، وهذا أمر يترقى منه إلى جميع الحب ، فتكون المراسلة والمكاتبة والهم والوجد ، والسهر على غير الإبصار ، فإن للحكايات ونعت المحاسن ووصف الأخبار وتأثير في النفس ظاهراً وأن تسمع نغمتها من وراء جدار فيكون سبباً

(١) ينظر ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري السيوفي ص ٥٠٤ .

(٢) سنخها : أصلها ، ينظر اللسان ج ٣ / مادة سنخ .

(٣) الأعراف : ١٨٩ .

(٤) الرسائل ، ج ١ ، ص ٩٤ .



للحب واشتغال البال . وهذا كله قد وقع لغيرها واحد ، ولكنه عندي بنیان هار على غير أساس ، وذلك أن الذي أفرغ ذهنه في هوى من لم ير لابد له اذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها ، وعينا يقيمها نصب ضميره ، لا يتمثل في هاجسه غيرها ، وقد مال بوهمه نحوها ، فإن وقعت المعاينة يوما ما فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية <sup>(١)</sup>.

وخلاصة القول : تعد هذه الطرائق الأربعة التي عددناها هي الدعائم الأساسية التي أقام عليها ابن حزم صدح كتابه طوق الحمامة ، وبتعبير آخر فإنها البنية الفنية التي حوت موضوع الألفه والألاف وجعلته ينبض حياة على مر العصور .

#### هـ- أثر كتاب الزهرة في الطوق:

يبدو مما سلف أن اطلاع ابن حزم على ما قيل في الحب كان كبيراً، وقد أوجد لديه رصيذاً ثقافياً واسعاً في هذا الميدان، وخلق منه عالماً متفرساً في دراسة الحب وما يتصل به، وأثر فيه تأثيراً كبيراً، وهياًه ليسلك سبيلاً جديداً ومختلفاً فيما كتبه عن هذه الظاهرة الإنسانية العجيبة في رسالته طوق الحمامة.

ويظهر ذلك جلياً في مقدمة رسالته المذكورة، إذ وجدناه - كما مرّ معنا - يرفض "أن يتقيد بمنهج الرواية الأدبية لأخبار العشاق التي كانت طريقة متبعة في دراسة العشق من قبل" <sup>(٢)</sup>، كما أنه رفض أن يورد شعراً لغيره - ما عدا بعض المقطوعات القصيرة - واقتصر في ذلك على أشعاره التي تناولناها بالدراسة في الباب السابق.

وحديثنا عن تأثير ابن حزم بما قيل في العشق يدعونا للحديث عن أهم كتاب

كان له الأثر المباشر في الطوق ألا وهو كتاب الزهرة.

والزهرة - كما نعلم - كتاب في الحب صنفه أبو بكر محمد بن داود

الظاهري في عنفوان شبابه "وهو مجموع أدب أتى فيه بكل غريبة ونادرة وشعر

(١) الرسائل، ج ١، ص ١١٧.

(٢) دراسة الحب في الأدب العربي، د. مصطفى عبد الواحد، ج ٢/ ص ٣٠٠.

رائق<sup>(١)</sup>، ولم يقتصر فيه على المشاهدة كما فعل صاحبنا، وفي ذلك يقول في مقدمته للزّهرة "انترعته لك من خواطري واخترته من غريب ما اتصل بسامعي..."<sup>(٢)</sup>.

ويحدثنا أبو بكر عن اسم كتابه وترتيبه ونظامه فيقول: "وهو كتاب سمّيته كتاب الزّهرة، واستودعته مئة باب، ضمنت كل باب مئة بيت أذكر في خمسين باباً من جهات الهوى وأحكامه، وتصاريفه وأحواله، وأذكر في الخمسين الثانية أفانين الشعر الباقية"<sup>(٣)</sup>.

ومما لا شكّ فيه أن ابن حزم قد وصله كتاب أبي بكر هذا، واطلع عليه بامعان، ويتضح ذلك من خلال كلامه في ماهية الحبّ حيث يقول: "وقد اختلف النَّاس في ماهيته وقالوا وأطالوا، والذي أذهب إليه أنّه اتصال بين أجزاء النفس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة: الأرواح أكر مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها في مقرّ عالمها العلوي، ومجاورتها في هيئة تركيبها"<sup>(٤)</sup>.

ويبدو من كلام ابن حزم في ماهية الحبّ ونقده لرأي أبي بكر في ذلك، أنّه أفاد كثيراً من دراسة هذا الأخير للعشق، ومن ثمّ فلا يستبعد أن يكون صاحبنا قد استوحى فكرة طوق الحمامة من كتاب الزّهرة.

ولعل هذا ما حدا بالدكتور مصطفى عبد الواحد إلى القول: "وقد كان يُرجى لابن حزم أن يتأثر متأثراً واضحاً بابن داود، فهو متقدم عليه وظاهري مثله، وهو متحرر من التقليد كابن حزم، رقيق الوجدان، مشتعل العاطفة ولكن ابن حزم يحاول دائماً أن يكون فذاً في اتجاهه، وأن يعتمد على تجربته ولا يسلم بآراء غيره إلا بعد اختيارها"<sup>(٥)</sup>.

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٤/ ص ٢٦٠.

(٢) الزّهرة، لابي بكر محمد بن داود الأصفهاني، تحقيق لويس البوهيمي، مطبعة الأباء اليسوعيين في

بيروت ١٩٣٣ ص ٣.

(٣) الزّهرة، محمد بن داود ص ٤

(٤) الرسائل، ج ١، ص ٩٤.

(٥) دراسة الحب في الأدب العربي - مصطفى عبد الواحد، ج ٢/ ص ٣٠٥.

وإذا ما وازنا بين الكتابين في الحب فإننا نجد مواطن التأثير في الطوق قليلة وهذه القلة نفسها ضعيفة حيناً، وقوية حيناً آخر فهو إما يتفق فيها معه أو يسير على ترتيبه.

ومن أمثلة ذلك حرص ابن حزم - كما مر معنا - على تدرج الأبواب وتتبع عاطفة الحب في نشأتها وتطور أعراضها، ودرجاتها وأنواعها، ومثل هذا الاهتمام بالترتيب المنطقي لتطور العاطفة نجده أيضاً لدى أبي بكر في الزهرة حيث يقول: "ورتبته على ترتيب الوقوع حالاً فحالاً، فقدّمت وصف كون الهوى وأسبابه، وبسطت ذكر الأحوال العارضة فيه بعد استحكامه من الهجر والفراق، وما توجه غلبات الشوق والإشفاق، ثم ختمتها بذكر الوفاء بعد الوفاة، بعد أن أتيت على ذكر الوفاء في الحياة، وأجريت ما بين أول الأبواب وأوسطها، وما بين أوسطها وآخرها على المراتب باباً باباً، لم أقدم مؤخراً وأؤخر مقدماً"<sup>(١)</sup>.

وليس هذا التوافق بين الكتابين في الرأي من محض الصدفة، وتوارد الخواطر، لو لم يكن ابن حزم قد تأثر بالزهرة، وأعجب بترتيبها المنطقي. ويتجلى هذا التأثير أيضاً في تعليقه لسبب الكتمان بقوله: "ربما كان سبب الكتمان إبقاء المحب على محبوبه" وهذا الرأي قد تعرض له أبو بكر بن داود، وأفاض فيه ودعمه بشواهد كثيرة<sup>(٢)</sup>.

ومن عبارات طوق الحمامة المطابقة أو المقاربة لما نجده في كتاب الزهرة قول ابن حزم "وسمع بعض الحكماء قائلاً يقول: "الفراق أخو الموت، فقال بل الموت أخو الفراق"<sup>(٣)</sup>، والواقع أن هذا الحكم الذي أشار إليه ابن حزم هو صلح الزهرة نفسه، إذ يقول: "وقد قال الجاحظ: لكل شيء رفيق ورفيق الموت الهجر، وليس الأمر كما قال، بل لكل شيء رفيق ورفيق الهجر الموت"<sup>(٤)</sup>.

(١) الزهرة، محمد بن داود، ص ٥.

(٢) الزهرة، ص ١١٥.

(٣) الرسائل، ج ١، ص ٢١٥.

(٤) الذخيرة، لابن بسام، ص ١٣٧.

ومن مواطن تأثر ابن حزم بالزهرة- أيضاً- ما ذكره من أن "من أحب من نظرة واحدة، وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة، فهو دليل على قلة الصبر ومخبر بسرعة السلو، وشاهد الطرافة والملل. وهكذا في جميع الأشياء أسرعها نمواً أسرعها فناً، وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاداً"<sup>(١)</sup>، وهذا ما ذهب إليه ابن داود في كتابه الزهرة إذ يقول: "فإذا وقع الهوى بأول نظر، ثم ارتقى صاحبه ارتقاء بغير ترتيب حتى صار مدلهاً بمن يهواه قبل أن تطول معاشرته، كان بقاء ذلك الهوى يسيراً، وهكذا كل شيء في العالم إن اعتبرته وجدت ما ارتقى إلى هذه الغاية القصوى بغير ترتيب انحط انحطاطاً طويلاً"<sup>(٢)</sup>.

وخلاصة القول يبدو أن ابن حزم قد أفاد كثيراً من عمل ابن داود في كتابه الزهرة، وإن كان قد خالفه في كثير من الأمور، كاعتماده على تجاربه وملاحظاته وبذلك يعد "طوق الحمامة في مجموعه عملاً جديداً لم يتابع فيه ابن حزم من سبقه على وعي منه، وهو بذلك يخالف طريق المصنفين الذين يعتمدون على النقول، ويجمعون آراء المتقدمين ويستعرضون اتجاهات السابقين"<sup>(٣)</sup>.

(١) الرسائل، ج ١، ص ١٢٣.

(٢) الزهرة، ص ٤٠.

(٣) دراسة الحب في الأدب العربي، ج ٣، ص ٦٧.

## ٦- التصوير الواقعي في الطوق:

استطاع ابن حزم في رسالته طوق الحمامة أن يجسّد بأمانة بيئته وأخلاق مجتمعه الأندلسي في تلك الفترة من تاريخه، وذلك باعتماده الكبير على إيراد أمثلة حيّة مستمدّة من صميم الواقع المعيشي وصاب الحياة آنذاك، وإن كنا نلمس في نشره أثراً لذاتيته وعواطفه الفردية.

والدّارس للطوق يدرك- من دون شك- أن أسلوب ابن حزم واقعي إلى حدّ كبير، بعيد عن التعقيد، إذ لم يجعل بينه وبين القارئ ستاراً يغشي به الحقيقة، بل هو صريح لا يتوانى عن وصف أدقّ النّزاعات، وفي ذلك يقول: "والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدّك، والاقتصار على ما رأيت أو صحّ عندي بنقل النّقات"<sup>(١)</sup>.

وقد لا نبالغ إذا قلنا إن نظرة الطوق الجمالية تكمن في قوّة تفهم للنفس الإنسانية المحبّة من جهة، واقتصاره على نماذج بشرية عاصرها أو شاهدها أو سمع عنها في مجتمعه الأندلسي<sup>(٢)</sup> من جهة أخرى. وهذا المنحى في أدب ابن حزم يذكرنا بالجاحظ الذي "كان يتخذ من قلمه شيئاً كريشة المصور، ينقل الوقائع كما يراها، وكما يحسها، وهمّه في ذلك أن يصوّر الشيء على حقيقته ويرسمه في واقعيته، حتّى تكون كتاباته سجلاً صادقاً لهذه الحياة، يرى الناس فيها حقيقة نفوسهم، وطبيعة حياتهم، ومعنى وجودهم يرون فيها بسمة الخير وعبوس الشرّ، نور الحقّ وظلمة الباطل، نعيم اللذة وعذاب الألم، لهيب الشّك، وبرد اليقين، حرارة اليأس وحلاوة الأمل، جنة الحب ونار الحرمان، جمال الفضيلة وقبح الرذيلة، قوّة العلم وضعف الجهل يرون فيها هذا وغيره مما هو متصل بهم وبحياتهم فيتمثّلونه ويستبصرونه"<sup>(٣)</sup>.

(١) الرسائل، ج ١، ص ٨٧.

(٢) ينظر تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة، ص ٢٨٣.

(٣) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه. عبد الحكيم بليغ- مطبعة الرسالة- القاهرة (بدون ط) سنة

١٣٧٥هـ/١٩٥٥م-ص ٢٣٨.

ولابن حزم في كتابه طوق الحمامة صور كثيرة نلمس فيها استناد فكره الأدبي على حقائق، وظواهر من الواقع في دراسته للحب، وما يتصل به من آمال وآلام. ومن أمثلة ذلك قوله في باب الطاعة: "كانت لسعيد بن منذر بن سعيد<sup>(١)</sup> صاحب الصلاة في جامع قرطبة أيام الحكم المستنصر بالله رحمه الله، جارية يحبها حباً شديداً فعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها. فقالت له ساخرة به وكان عظيم اللحية: إن لحيتك أستبشع عظمها، فإن حذفت منها كان ما ترغبه. فأعمل الجلمين<sup>(٢)</sup> فيها حتى لطفت، ثم دعا بجماعة شهود وأشهدهم على عتقها ثم خطبها إلى نفسه فلم ترض به. وكان في جملة من حضر أخوه حكم بن منذر فقال لمن حضر: أعرض عليها أني أخطبها أنا، ففعل فأجابت إليه. فتزوجها في ذلك المجلس بعينه، ورضى بهذا العار الفادح على ورعه ونسكه واجتهاده<sup>(٣)</sup>."

فالكاتب - كما نرى - استطاع بقدرته الفنية والإبداعية أن ينقل إلينا صورة حسيه من مجتمعه الأندلسي ويجسد في الوقت نفسه أجواءه. بما فيها من نواذر وأحداث، وذلك في أسلوب قصصي ممتع.

ومما سبق نستطيع أن نسجل بعض الانطباعات على هذه الرسالة أهمها:

١- كان ابن حزم أميناً إلى حد كبير في تصوير كل ما كان يراه أو يسمعه من النقات.

٢- يتعامل ابن حزم مع الواقع للإبداع الفني، ويزكيه بأشعاره الخاصة.

٣- لم يغرق ابن حزم في الخيال الذي يجنح بالقارئ في عوالم بعيدة كل البعد عن الواقع الحي.

٤- لا نتعرف في هذا الكتاب عن شخصية ابن حزم فحسب، بل نتعرف على صورة شائقة لناحية من نواحي الحياة في عصره لا يعرف عنها إلا القليل.

(١) هو سعيد بن منذر بن سعيد، وهو من أبناء قاضي الجماعة منذر بن سعيد البلوطي ويكنى أبا عثمان. كان خطيباً بليغاً، وقتل يوم تغلب البربر على قرطبة سنة ٤٠٣هـ/ ينظر ترجمته في الصلة ج ١/ ص ٢١٢-٢١٣.

(٢) الجلمين: المقرضان، واحدهما جلم، وهو الذي يجزه الشعر والصوف ينظر اللسان ج ١٢/ مادة جلم.

(٣) الرسائل، ج ١، ص ١٥٦.

٥- أصبحت كثرة الأخبار الدقيقة المتميزة وعرضها بتفصيل، تكاد تستغرق هذا الأثر الأدبي، ولكنها مع ذلك تضيف عليه مسحة جمالية واجتماعية لأنها "تكشف الكثير من جوانب الحياة الأندلسية، وتوقفنا على أسرار حكام ورؤساء، وترفع الستائر عن بيوت وقصور، وتنبّه إلى ما كان لصنوف من النساء من نشاط في دنيا المحبين، كالطبيبة، والجمامة والدلالة والماشطة والمغنية والمعلمة وما إلى ذلك . . (١).

٦- لعل هذه المحاولات هي التي جعلت ابن حزم يسقط في التجريبية بشكل مسرف لتصبح الرسالة في معظمها مجرد انعكاس حرفي للواقع.

---

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيك، دار المعارف، القاهرة (٧) ١٩٧٩ ص ٣٩٧.

## الفصل الثاني

### رسالة في مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق الذميمة:

كان ابن حزم - كما أسلفنا - شغوفاً بالتعامل مع الواقع للإبداع الفني وكان من شأن ذلك أن أعمل عقله في كل شيء رآه بعينه، وأحاط بالحياة تجربة وفكراً، فأفاد من ذلك فائدة عظيمة، وخرج من دائرة نفسه إلى المجتمع الواسع الفسيح، وتناول قضاياها في كتاباته بالعرض والتحليل والمعالجة كما هو الشأن في رسالته طوق الحمامة. وحسبنا هنا أن نعرض للأهم منها، ألا وهي رسالته في مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق الذميمة<sup>(١)</sup> لكونها أكثر جدية، وأشدّها ارتباطاً بحاجات مجتمعه الذي أفسدته الفتن والاضطرابات السياسية.

وتعدّ هذه الرسالة (مداواة النفوس) مثلاً طيباً من أمثلة البحث الجادّ المعتمد على الاطلاع الواسع، والفهم الكبير لدى ابن حزم. كما أنّها توضح جوانب عديدة من فلسفته في حياة الناس الاجتماعية والنفسية؛ لأنها ضمت خلاصة تجاربه القاسية<sup>(٢)</sup> في الحياة، إلى جانب الورع والحض على التقوى والعمل على مداواة ذوي النفوس الذميمة وفي ذلك يقول: "أما بعد، فإنّي جمعت في كتابي هذا معاني كثيرة أفاد فيها واهب التمييز تعالى، بمرور الأيام وتعاقب الأحوال بما منحني عزّ وجلّ من التهمم بتصاريف الزمان والإشراف على أحواله حتّى أنفقت في ذلك أكثر عمري. وأثرت تقييد ذلك بالمطالعة له والفكرة فيه على جميع اللذات التي تميل إليها أكثر النفوس وعلى الازدياد من فضول المال. ورقمت كل ما سبّرت من ذلك بهذا الكتاب لينفع الله تعالى به من شاء من عباده، ممن يصل إليه، ما أتعبت فيه نفسي، وأجهدتها فيه وأطلت فيه فكري، فيأخذه عفواً، وأهديته إليه هدياً. فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال وعقد الأملاك إذا تدبره ويسره الله تعالى

(١) دعيّت هذه الرسالة تارة "أخلاق النفس" وطوراً "كلمات في الأخلاق" وحيناً "كتاب الأخلاق والسير في مداواة النفوس" وبهذا العنوان طبعت في القاهرة وبيروت سنة ١٣٢٥هـ. كما طبعت بدمشق سنة ١٣٢٥هـ بعنوان "مداواة النفوس في تهذيب الأخلاق والزهد والردائل" ينظر دائرة المعارف (قاموس عام لكل فن مطلب) بإدارة فؤاد أفرام البستاني - بيروت سنة ١٩٥٨م - ٢/ص ٤٤٤.

(٢) ينظر ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، السيوفي، ص ٤٧٥، وابن حزم

الأندلسي حياته وأدبه، عبد الكريم خليفة، ص ١٨٠.



لاستعماله، وأنا راج في ذلك من الله تعالى أعظم الأجر لنيتي في نفع عباده وإصلاح ما فسد من أخلاقهم ومداواة علل نفوسهم، وبالله تعالى أستعين . . . (١).

#### ١- مصادر مداواة النفوس:

إن دراستنا لهذه الرسالة تعطينا- بلا ريب- نظرة عامة وإجمالية عن أبحاث ابن حزم في الأخلاق وما يتصل بها، ذلك لأنه اهتم فيها اهتماماً كبيراً بالأمور النفسية والتحليل الخلقي. ويتضح من خلال اطلاعنا على هذا العمل الخالد، أن السبب الذي دفع الكاتب إلى تأليفه هو "محاولة منه لتمثيل دور الطبيب النفسي الذي أراد معالجة الأدوار الاجتماعية والنقائص الخلقية على عهده، على أن ذلك يرأب الصدع في كيان المجتمع الأندلسي (٢).

وإذا ما تتبعنا روافد ومصادر هذه الرسالة العلمية وجدناها كثيرة ومتنوعة ويمكن حصرها في مصدرين أساسيين هما:

أولاً: معرفة ابن حزم الكبيرة بالدراسات الفلسفية المبنية على العقل التي كانت معروفة عند اليونان والهند والفرس، ثم ترجمت إلى العربية وعرفت بالأندلس، وفي هذا المعنى يقول ابن حزم "واطلاعي على ما قالت الأنبياء- صلوات الله عليهم- والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق وفي آداب النفس، أعاني مداواتها، حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنه (٣).

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك تأثر ابن حزم بالسيرة النبوية التي كانت بالنسبة إليه نبزاً يفتدى به إذ يقول: "من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها فليتقيد

(١) الرسائل ، ج ١، ص ٣٣٣-٣٣٤.

(٢) ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، مصطفى السيوفي، ص ٤٧٧.

(٣) الرسائل ، ج ١، ص ٣٥٣-٣٥٤.

بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه أعاننا الله على الاتساء به بمنه آمين آمين" (١).

أما المصدر الثاني الذي غذى تحليل ابن حزم الخلقي، فيتمثل في مشاهداته وتجاربه الخاصة التي قامت على الاستقراء والتتبع وهذه سمه نلمحها في كثير من كتاباته ويتضح هذا في جوانب متعددة من رسالته في مداواة النفوس، وللتدليل على ذلك نسوق هذا المثال الذي نقطفه من فصل العلم حيث يقول: "وقد رأيت من غمار العامة من يجرى من الاعتدال وحميد الأخلاق إلى ما لا يتقدمه فيه حكيم عالم راضٍ لنفسه ولكنه قليل جداً ورأيت ممن طالع العلوم وعرف عهود الأنبياء عليهم السلام ووصايا الحكماء وهو لا يتقدمة في خبث السيرة وفساد العلانية والسريرة شرار الخلق، وهذا كثير جداً فعلمت أنهما مواهب وحرمان من الله تعالى" (٢).

ومهما يكن من أمر المصادر التي استقى منها ابن حزم آراءه في دراسته للأخلاق والنفوس الإنسانية، فإن شخصيته العلمية تبدو واضحة بارزة في بحثه، وهذا ما نستشفه من تحليلاته المفعملة بنور عقله، كقوله: "لذة العاقل بتمييزه، ولذة المجتهد لله عز وجلّ باجتهاده، أعظم من لذة الأكل بأكله والشارب بشربه والواطيء بوطئه، والكاسب بكسبه واللاعب بلعبه والأمر بأمره. وبرهان ذلك أن الحكيم والعالم والعاقل والعامل من ذكرنا واجدون لساائر الذات التي سمينا كما يجدها المنهمك فيها ويحسنونها كما يحسها المقبل عليها، وقد تركوها وأعرضوا عنها وآثروا طلب الفضائل عليها. وإنما يحكم في الشئيين من عرفهما، لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر" (٣).

(١) الرسائل، ج ١، ص ٣٥٣.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ٣٤٦.

(٣) الرسائل، ج ١، ص ٣٣٥.

## ٢- خطوات الرسالة:

لقد بلغ ابن حزم في دراسته هذه درجة عالية من حيث البحث السيكولوجي والاجتماعي، وإن لم يراع في تنسيق فصولها وتسلسلها منطقاً<sup>(١)</sup>. وعلى الرغم من ذلك فإنها تجسد في صدق تام نضجه العقلي، ومعرفته الكبيرة بمفاسد النفس وأمراضها وخباياها من جهة، وتمكنه من وصف العلاج لمداواتها وتهذيبها، والتبصير بالمثل العليا في الحياة من جهة أخرى.

وفيما يلي الخطوات- أو الفصول- التي سار عليها ابن حزم في رسالته:

١- فصل في مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق الذميمة، وتناول فيه قضية الطمع الذي هو مفسدة للأخلاق ومصدر كل هم، وكيفية التخلي عنه وذلك بالتوجه إلى الله عز وجل والعمل للآخرة.

٢- فصل في العلم وتناول فيه فضل العلم على الناس؛ لأنه يساعدهم على التمييز بين حسن الفضائل وقبحها.

٣- فصل في الأخلاق والسير، وتناول فيه السير الحميدة، والأفعال الإنسانية والأخلاق الفاسدة وطريقة مداواتها.

٤- فصل في الإخوان والصدّاقة والنصيحة، وفيه حدّد أبعاد الصداقة وشروطها والفرق بين الصداقة والنصيحة وغاية الصداقة بين الناس.

٥- فصل في أنواع المحبة تحدّث فيه عن مراتبها وحدّد كل مرتبة بتعريف يتماشى وإياها. وأنواع المحبة- في نظره- وإن كانت تختلف في ظاهرها، فإنها ترجع كلّها إلى أصل واحد ألا وهو "الطمع فيما يمكن نيله من المحبوب"<sup>(٢)</sup>.

٦- فصل في صباحة الصّور وتعرض فيه لمعنى الحلاوة والقوام والروعة والحسن والملاحة.

(١) ينظر ابن حزم الأندلسي لاسين بلاثيوس- نقلاً- عن دراسات عن ابن حزم- د. الظاهر أحمد مكي،

ص ٩٠.

(٢) الرسائل ، ج ١، ص ٣٢٥.

٧- فصل فيما يتعامل به النَّاس في الأخلاق وتناول، فيه مراتب الأخلاق وما طبع عليه أهل كلِّ صفة مثل الوفاء والأمانة والعفة... الخ.

٨- فصل في مداواة ذوي الأخلاق الفاسدة وتناول فيه بالدراسة- كما يدل على ذلك عنوانه- أصقَاب الأخلاق الدَّنيَّة التي تَبْدَل الطَّبَّاع مع وصفه لأدوائها وطرق مداواتها، ويأخذ من نفسه الشَّاهد والمثل.

٩- فصل في غرائب أخلاق النَّفس، وتناول فيه عجائب الأخلاق كالغفلة واليقظة وكيفية استعمالها وما ينتج عنها من خير وشر.

١٠- فصل في تطلع النَّفس إلى معرفة ما تسترُّ به عنها من كلام مسموع أو شيء مرئي وإلى المدح وبقاء الذِّكر وهما عنده أمران "لا يكاد يسلم منهما أحد إلا ساقط الهمة جداً أو من راض نفسه الرِّياضة التامة وقمع قوَّة نفسه الغضبية قمعاً كاملاً"<sup>(١)</sup>.

١١- فصل في حضور مجالس العلم، وتناول فيه آداب وسلوك طالب العلم الحسنة مع تبيان عيوبه وكيفية التخلّص منها.

تلك هي الفصول أو الخطوات التي تضمنتها رسالة مداواة النَّفوس، وابن حزم كما نرى- يطرح فيها واقعاً نفسياً وأخلاقياً محضاً ويغوص فيه بالبحث والدراسة شأنه في ذلك شأن العالم النَّفساني الحديث الذي يعمل على كشف الطبائع البشرية وآفاقها ليَجعل منها معياراً يداوي به النَّفس الإنسانية العليلة.

### ٣- تعمق ابن حزم في النَّفس الإنسانية وتحديد أبعادها:

نستنتج ممَّا سبق أن رسالة مداواة النَّفوس تقوم على فكرة إصلاح النَّفس الإنسانية ومداواتها وتهذيبها. والدارس لهذه الرِّسالة يلاحظ- من غير أدنى شك- أن ابن حزم قد أبدع في عرض القضايا النَّفسية والأخلاقية إبداعاً كبيراً، إذ بسط لنا في تحليل دقيق جوانب كثيرة لذوي النَّفوس المريضة<sup>(٢)</sup>.

(١) الرسائل، ج١، ص٤٠٧.

(٢) الرسائل، ج١، ص٣٨٦ وما بعدها.

## الفصل الثاني

### الأسلوب العلمي:

يعمد ابن حزم في أسلوبه العلمي إلى الوضوح والتحديد بقصد أداء الحقائق وخدمة المعرفة وإنارة العقول. ويقوم هذا النوع من الأسلوب عنده على الاهتمام بالفكرة دون الصورة مستعيناً لذلك بالألفاظ الدقيقة الدالة والعبارات السهلة الواضحة البعيدة عن التأنق والزينة اللفظية، مع العناية بوضوح المعنى ليسهل على القارئ فهمها واجتناء الفائدة منها، من غير تعثر أو تردد أو تأويل. وهذه سمة امتازت بها كل رسائله التي تناولت القضايا العلمية، ومن أمثلة ذلك هذه الفقرة المقتطفة من رسالة التوقيف على شارع النجاة باختصار الطريق حيث يقول: ".... وهكذا وجدنا كل من يولد أصم فإنه لا يكون ضرورة إلا أبكم لا ينطق أبداً، فصح ضرورة أنه لا يتكلم أحد أبداً إلا من سمع الكلام وعلمه، وكذلك جميع العلوم لا يمكن البتة أن يحسنها أحد أبداً إلا حتى يعلمها، برهان ذلك المشاهدة مدة عمر العالم إلى يومنا هذا، فإن كل من لا يعلم الكلام لا يعلمه. والبلاد التي لا علم فيها كبلاد الروم والصقالبة والترك والديلم والسودان والبربر والبوادي التي بين الحواضر لا سبيل إلى أن يوجد فيها شيء من العلوم التي لم يعلموها مذ وجد العالم إلى يومنا هذا، وكذلك جميع الصناعات من الحرث والحصاد والدرس...." (١).

ويستند هذا النوع من الكتابة لدى ابن حزم إلى العقل والمنطق دون العاطفة والخيال - كما أشرنا - ناهيك عن ترتيب الأفكار وإيراد الحقائق مشفوعة بالأدلة والحجج والبراهين، مدعومة في كثير من الأحيان بالتجربة والمشاهد الحية ومن أمثلة ذلك ما كتبه بصدد تعليم الأطفال في رسالة مراتب العلوم حيث يقول: "فالواجب على من ساس صغار ولدانه وغيرهم أن يبدأ منذ أول اشتدادهم وفهمهم ما يخاطبون به، وقوتهم على رجوع الجواب - وذلك يكون في خمس سنين أو نحوها من مولد الصبي - فيسلمهم إلى مؤدب في تعليم الخط وتأليف الكلمات من الحروف، فإذا درب الغلام في ذلك، درس وقرأ. والحد الذي لا ينبغي أن يقتصر

(١) الرسائل ج ٣، ص ١٢٦.

المعلم على أقل منه أن يكون الخط قائم الحروف، بيناً صحيح التأليف الذي هو الهجاء، فإن الخط إن لم يكن هكذا لم يقرأ إلا بتعب شديد. وأما التزويد في حسن الخط فليس هو فضيلة بل لعله داعية إلى التعلق بالسلطان، فيفنى دهره إما في ظلم الناس، وإما في تسويد القراطيس بتواقيع بعيدة من الحق، مشحونة بالكذب والباطل فيضيع زمانه باطلاً، وتخسر صفقته، ويندم حيث لا ينفعه الندم...»<sup>(١)</sup>.

وما من شك في أن أسلوب ابن حزم العلمي قد تأثر بثقافته الواسعة وروحه العلمية، وبما كان يعنى به من فقه، وعلم الكلام وجدل ودين. ولعل هذا ما جعل رسائله تتسم بخصائص موضوعية قوامها الأمور الدينية والأحاديث النبوية، كما اشتملت على لهجة ظاهرية تعكس في صدق آراء صاحبها وفكره ومما نمثل به لهذا الأمر، هذه الفقرة المأخوذة من رسالته المسماة: رسالتان أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سؤال تعنيف حيث يقول: <sup>(٢)</sup>.

"وأما قولهم: إنا نرى التعليل والاحتجاج، فقد مزجوا الكذب بالصدق والباطل بالحق، وأعوذ بالله أن نرى التعليل، بل قد رمونا هاهنا برأيهم وهم الداعون إلى التعليل لا نحن، وكتب حذاقهم في إثبات العلل والقول بالتعليل مملوءة، كما أن كتبنا وكتب أصحابنا مملوءة من إبطال العلل والمنع من التعليل. فلو اتقى الله تعالى هؤلاء القوم لم يتكلموا فيما لا يحسنونه وقد سمعوا قول الله تعالى {ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم، فلم تحاجون فيما لكم به علم، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم} <sup>(٣)</sup>.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن رسائل ابن حزم العلمية كانت بالنسبة إليه وسيلة لغاية دينية ودنيوية، والمتأمل في معظمها "يجدها حافلة بالعبارات المقذعة والأساليب العنيفة في نقد أقاويل خصومه ودحض حجج معارضييه. ولعل هذا ما

(١) الرسائل ج ٣، ص ٦٥.

(٢) الرسائل، ج ٣، ص ٧٤.

(٣) آل عمران: ٦٦.

حدا ببعض المؤرخين إلى القول<sup>(١)</sup> "إن لسان ابن حزم وسيف الحجاج كانا شقيقين"<sup>(٢)</sup>.

وخلاصة القول، إن معرفة ابن حزم بالاساليب النثرية ساعدته على أن يكون أقدر على التعبير عن أفكاره وعواطفه وآرائه، واختار لها الشكل الفني الملائم لتأديتها والتأثير عن طريقها في القارئ، وتحريك وجدانه وإغناء عقله ودفعه إلى التأمل في الحياة، واكتناه أسرار النفس وعجائب الكون، وتوجيهه إلى الآمال المرتقبة والمثل العليا. ومن هنا فإننا لا نبالغ إذا قلنا إن ابن حزم في أسلوبه المرسل علم من أعلام الترسل في القرن الخامس الهجري، ومثل صادق لتطوره في هذه الحقبة الغنية بالمعرفة.

---

(١) قائل هذه العبارة: أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي الأندلسي المعروف بابن العريف (٤٨١-٥٣٦هـ) ينظر وفيات الأعيان ج ١/ ص ١٦٨-١٧٠ ترجمة رقم ٦٨- المغرب ج ٢/ ص ١١٢، البغية رقم ٣٦٠- وقد وردت هذه العبارة في وفيات الأعيان م ٣/ ص ٣٢٨ على الشكل التالي: "كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف شقيقين".

(٢) ابن حزم الأندلسي، زكريا إبراهيم، الدار المصرية للتأليف والترجمة ص ٤١.